حدث في ذاك الزمان

حدث
في ذاك الزمان

تأليف: الأستاذ وهيب سراي الدين

حدث في ذاك الزمان

تأليف: الأستاذ وهيب سراي الدين

الطبعة الأولى: ٢٠٠٩.
عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.
جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:
دار مؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ ١١ ٠٩٦٣
تلفاكس: ٥٦٣٢٨٦٠ ١١ ٠٩٦٣
ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

الإهداء

إلى الذين أُثني عليهم دوماً:

الذادة الأبطال من أبناء أمتي

وهيب

الفصل الأول

سرت متحاملاً على نفسي. تنقلني ساقان رفيعتان، كعصوين. يداي تطوّحان حول جذعي شبه المنحرف، كأنهما جناحان، أستعين بهما عند المشي.

تأكدتُ هيئتي، في مرآة المغسلة، قبل أن أغادر بيتي. مازال شكلي هو هو: شدخ في الجانب الأيسر، من الرأس. لم يندمل بعد، على الرغم من مرور الزمن. بُعثِرتْ فوقه بضع شعيرات.

وتابعتُ: السحنة مقطّبة. غضونها تصنع بين عيني عقدةً صعبة. العينان غائرتان، تحت الحاجبين الكثين، الشفتان مزمومتان تطبقان، على فمي بقوة. كأنهما تنغلقان على سرٍ عظيم! أمّا الأذنان، فاليسرى مصلوم نصفها. واليمنى بقيت عادية وقادرة على التقاط أدق الذبذبات الصوتية.

الوقت صباح. والشمس تملأ الكون بضيائها.

-«هذا أبو حمّاد يدرج بجمسه المخلّع»!

-«إلى أين يتجه، اليوم، هذا الأجلح؟ يظل يحجل على رجليه الملتكّتين، من مكان إلى آخر»

-«انظروا إلى عبسته،إلى فمه المصمّغ... كماشةٌ لا تفكّ منه كلمة.... ابتسامة... ».

-«دعوه، يا جماعة،سادراً، في أوهامه. إنه يعيش في دنيا غير دنيانا.. ».

أهالي حارتي يثرثرون، حينما أخرج. وحينما أعود. وانا فعلاً مسطول. أقبع في دنيا غير دنياهم. أعذرهم!

على كل حال. يجب أن استوقف (تكسي)، لأكون، بعد قليل، في (المرآب الموحّد). فالجنوب، قصدي، في هذه السفرة، وإليه «السبيل».

أجل، كنت قد مللت المدن، في زياراتي المتكرّرة. وتقت إلى رؤية الجبال، وما فيها من قرى وأرياف. علّني أعيش، مع آثارها، في ردهات الماضي الفسيحة أياماً عدة، ثم أعود، لأنتقل إلى منطقة أخرى.

هكذا، صرتُ، في أخريات حياتي، صديقاً للماضي

فقط. وجمجمة رأسي، غدت ذاكرة بحتاً له. لا وجود، فيها، لصيغتي الحاضر، والمستقبل، بتةً!

دفعت الأجرة، وولجت الباص. انكمشتُ في مقعدي المعيّن، والتصقت، كالعادة، بذاتي الداخلية، كأنني ما زلت وحدي.

الباص مريح للغاية، والطريق عريضة، تكسوها طبقة زفتية ممتازة، من درجة (بريمكس). فتهادى فوقها، كسفينة عائمة، على سطح المحيط. راح يبتلع التلال والسهول، والجبال. ويرميها إلى الخلف، بسرعة فائقة!

بعد نصف ساعة، من الهدهدة، ارتخت حبال رقبتي. وأخذ رأسي العاصف الفارغ من النوم، يتأرجح، فوق كتفيّ، كنوّاس مقلوب. نعم. ليلة البارحة لم أنم. بل تناومت فيها عبثاً. أغمضتُ جفوني، وباتت عيناي ساهرتين، تشاهدان في أعماقي شريط حياتي الكئيبة.

وأخيراً ارتمى رأسي، على ظهر الكرسي، أمامي. لم أعد أشعر بوجودي، في الباص.

الخلاصة غفوتُ.

سبحان الله! لكل شيء، على هذه الأرض، سقف،

حدّ، يقف عندهما. عالم النسبي أقام مملكته المسوّرة هنا. وعالم المطلق، أقام مملكته المفتوحة، هناك. (في العالي العالي)... فوق السماء...

نعم... نعم. لم تعد أعصابي تقوى على الاحتمال. سهر في الليل. تأزّم في الرأس. انهيار في الجسم. قنوط في النفس...

قولوا لي يا ناس يا هو وو....ه! كيف ستكون حال شيخ هرمٍ مثلي. جاوز السبعين. يعيش فضلة عمره، كاستطالة شحمية زائدة في جسد الزمن؟ كيف....؟

لا زوجة. لا أولاد... لا عالم... ولا دنيا! وصل السقف في حياته، وراح يجترّ نفسه، منتظراً دنوّ ساعته.

أف...! ما أشقّ على الإنسان، أن يصل، في حياته، إلى سقفه. أن يقف عند (حدّه)، ولا يتزحزح عنه قيد أنملة!

وما أصعب رؤية اللون الحالك، ينتصب حاجزاً، أمام العينين، ولا يتبدّل!

يا للإحباط الذي حاق بي، في هذه السنين!

قبل عشرين سنة، كنت مشعشعاً بالأمل. لا يعرف اليأس إليّ سبيلاً. حياتي مترفة، كوردة فوّاحة. وزمني كمتنزّهٍ. يمور بالربيع والبهاء. ولكن عقب (حادث

الاصطدام) المريع، الذي فجعني بأسرتي انطلس نور الزمن، في ذهني بالسواد، ولم أعد أرى سوى بصيص الماضي. فاتخذته صديقاً. أتعزّى به عن زوجتي، وأولادي الخمسة. الذين لاقوا حتفهم.

أنا، من جهتي. كنت قد نجوت، بأعجوبة، من الحادث، بعد أن هشم سيارتي الخصوصيةَ، من نوع (بيجو)، صهريج نفطٍ، من القياس الكبير، له اثنتا عشرة عجلة. فقذفني بعيداً عنه، مسافةَ خمسينَ متراً، وَمَعَسَ أفراد أسرتي بالكامل، ولم أعِ نفسي، إلا وأنا في مشفى الجراحة العظمية بدمشق. قد تكسّرت أضلاعي، ورجلي اليمنى. وكشط الجلد عن عظم رأسي، في الجانب الأيسر، ومعه نصف أذني.

ثم سيطر علي، بعد ذلك، شعور مطبق، بالوحشة والعزلة. لا أدري لماذا أصبتُ بهذا (التوحّد)؟ لقد انطويت، على نفسي، تماماً، على عالمي الداخلي،وانسلخت عن العالم الخارجي. فلم ينبسط فمي بابتسامة قط. منذ عشرين سنة. كل ما يقوله أهل حارتي،عني، صحيح مئة بالمئة.

بل راودني شعور مزعج، أيضاً. اعتبرت نفسي عالة، في هذه الحياة.في هذا الوجود. مثل شجرة لبلاب. لا تعيش إلا

متوكّئة على غيرها. فأنا صرت كهذه الشجرة. بل كشجرة نفد نسغها،شاخت ويبست.

آه....! أيها اليبس الحبيب. هلمّ إليّ. وجمّدْ بقية دمي، في عروقي الهرمة. وأغمض عينيّ اللائبتين، واسبل يدي، على قامتي، ثم مدّدها في حفرتك الحنون. أراني لن أعود أصطبر، وأطيق العيش في سراديبي المعتمة هذه.

* * *

الباص ما زال يعوم، فوق الزفت الأملس. وأنا ما زلت متقعّراً، في مقعدي. أخفّف عن رأسي حمله الثقيل، في سرحتي «تلك». ولا أدري أين ارتجّت حركته، وفرمل كوابحه. إنما الذي عدت شعرت به من جديد، هو أن رائحة طيّبة عجيبة. عجّت في خياشيمي. وشاعت أنفاسها، في كل كياني، كسيّالة روحية دافقة. فاستأنستُ. وارتعش جسمي كالمسجّى الذي تدب فيه الحياة ثاذية. زخم من العواطف السامية، والمشاعر النبيلة،أخذَ يلفُّني. منذ مدة طويلة، لم أذق طعم البشر،ولا الأنس، في نفسي! ما سببهما الآن؟ ما مصدرهما؟ لا أدري، أيضاً. غير أنه استمرت الموجات العبقة، العلوية، تحيط بي. وتزخّني بالدفء والحرارة. فتحلّل لديّ

الصقيع. وتفككت المغاليق المسمكرة!

هَـهْ...! شـعرت كـأنني صـرت أحلـم. وكـأن المخايـل العذبة، تلوح لي من بعيد مجنّحةٌ بالألوان والتصاوير...

رفعت رأسي. وأنا أقبض على رزمة ضوء. التفتُّ حولي. وجدتني في باحة القرية (الأخيرة). التي انتهت إليها رحلة الباص. الذي أقلّني على غير هدىً.

*   *   *

الفصل الثاني

أرا ني الآن، وأ نا أ شاهد المكان عيا ناً. قد التدمع على وجهي المشطوف شريط من النور. وانساب إلى داخلي، وغمرني بشعاعه...

نعم... نعم... تذكرتُ. بل أشرق لي، ما كان قد حدث معي، أو حدث، بحضوري. أو بعلمي، في ذلك الزمان، في هذه القرية بالذات!

مسدتُ شعري الأشيب المبعثر. وأخذت أزيد في تأمّلي. أجل، المكان نفسه. نعم. تذكرت كل ما حدث. وكل ما استودع في خلدي وعلمي. ليس في هذا الزمن. وما أصابني فيه من تعاسة. بل في ذاك الزمن الماضي. الزا هر المجيد. تذكرت ما حدث فيه جيداً. فها هو ذا كل شيء هنا، ما زال على حاله، كما كنت قد تركته. أشاهده بأم عيني

(العمصاوين). كما شاهدته، أو كما عشت معه، منذ خمسة وسبعين عاماً...

حرّكت يدي، وفركت جبهتي، في مركز التذكّر بدماغي مراتٍ عدة. ثم عدت، وألقيت نظرة فاحصة صارمة: ((الباب)) هو. ما زال مفتوحاً مشرعاً على مصراعيه،عتيقاً كأنه يرافق الأزل، بقدمه،وبما آل إليه،في هذا الوضع. بتلك «الحادثة» المريعة. فاللمعتان الأثريتان، على جانبيه، مازالتا تحملان أثرها ـ أثر الحادثة ـ وما تركته عليهما رشقات الرصاص والبارود والدخان، وبقايا الدم الذي حال لونه، بفعل الزمن، وصارَ بذياً قاتماً. أما (الحنت) الذي ركب فوق الباب. فما زال موجوداً بحجره البازلتي الأسود الطويل، الذي يزيد عن المترين. وقد ظهرت عليه العلامات نفسها، من فعل الرصاص، ولون البارود الرمادي، وما رافق إطلاق النار، ببواريد الجنود الخائبين.

أجل تذكرت أن تلك البواريد، كانت من أنواع (الدبوليكي ـ البلجيكي ـ وأم زر، وأم زلاّقة، وأم ولاّعة). إيديه...! لم يغيّر مرور الزمن المديد كل هذه المعالم. فما زالت ماثلة للعيان، كما تركتها. متحديةً عوامل الرياح والأمطار، وعجاج الغبار.

إذن دعوني أعبّ نفساً من الهواء. وأتململ في وقفتي هذه، لأتملّى المكان أكثر.

وبحركة ضعيفة، من قواي الواهنة، برمتُ جسمي قليلاً. أدركت ساعتئذٍ كيف يصبح المرء عظيماً، عندما تحل فيه مصادفة عظيمة. مشاعر مجنّحة. خيلاء. زهو. كل ذلك أصابني. درت على محوري، ولو بصعوبة. تأكدت من ذاتي الراهنة. من سلامة ذهني. لم تأخذني سنة من النوم. بل أنا صحيح المزاج. وفي الغاية من صحتي العقلية والفكرية. إذن سأعود إلى نفسي. وأغبطها على هذه المصادفة الرائعة. أو بالأحرى، المصادفة العجيبة، الغريبة، والفريدة من نوعها. أتحملني قدماي (الفكحاوان)، حقاً، إلى هنا، إلى هذا المكان؟ نعم صدّقوني. لقد وجدتُه كأنني أغادره الآن. كل معلم فيه ظهر لي سليماً، كما تركته.

وغرقتُ بسيلٍ من العاطفة. شحنتُ تماماً. ورحت أستمع في داخلي، إلى دندنة أغنية حزينة. فللمكان حميمية خاصّة! بلى ها هو ذا قلبي أسمعه يدقّ، بحنين طاغٍ، إلى درجةٍ لا تصدق. فأجدني أستنيخ بعبئي التاريخي هذا على كلكله، في لحظاتٍ عارمةٍ، بالزمن. حبلى بالأفكار والمقولات الكبرى. هائجة مضطرمة بكل ما يتداعى. وبكل ما

يتـوارد، للـذهن والخـاطر، مـن إشـراق، فـي كشـف مكنونـات الأحـداث المحمولـة، بسـياق نفسـي، متصـل مـن (قميص) لآخر. ليكلمني ـ هذا السياق ـ الآن وجهاً لوجهٍ. ويتحدّث إلى وعيي، الذي بطن في غياهب نفسي، قبل خمس وسبعين سنة.

نعم إنها مدة طويلة. تنوف عن عمرٍ كامل، في جيل كامل! إذن دعوني أشبع نهمي الحاضر، من هذا المكان. وأنقل نظري في جنباته أكثر فأكثر.

صوبتُ وجهي نحو الأعلى، لأستوعي الرؤى الدافقة علـي. كانـت الغيـوم فـي السـماء، قـد مزقتهـا الـريح، نـدفاً مبعثرة. فاتسعت، قبالتي، البحيرات الزرقاء. وشعشعتْ بها أنفاسي وانفتحت. فعدتُ إلى وهيج ما أقف عليه. فهذا هو الجدار، وهذا بابه ما زال مفتوحاً وقائماً، بآثاره القاتمة، والملطّخ ببقع الدم، التي اكفهرّ لونها. وهذا هو البناء بكامل جدرانه الأربعة... أف! لماذا ازداد وجيب قلبي، وسرتْ في بدني قشعريرة طاغية؟ هيا يا أعصابي تحمّلي ما بوسعك، مما يعتريك، ولو بصعوبة.

مسدتُ لحيتي. وبسملت، هذه المرة. ثم تحركت،طبعاً، بمشيتي المعهودة؛ مشية رجل شاخ قبل أوانه قسراً.

عدتُ وتفحّصت البناء الخالد. وقَدْ رَانَ عليه صمت،

كصمت القبور. رحت أتشممه. كما يفعل كلب سلوقي أبلق، وهو يتشمم طرائده. وجدتُ أشياءه ما زالت مترابطة، متماسكة. كما هي متماسكة حجارته البركانية الصمّاء، المشدودة في مداميكه، بعضاً إلى بعض.

«إنه لبناء مرصوص»!

وأما السقف. آه... يا لهذا السقف الشهير! و يا لقصته العظيمة المدهشة! تراها قد هلَّتْ على ذهني، كهلال القمر. و كأن فاح التاريخ كله برائحته، كما يفوح السعتر الجبلي بأعباقه الذكية. افترّ فمي تحت شاربي، بما يشبه الابتسامة. هيا يا أبا حماد تابع تجوالك الذهني، في هذا المكان. وزدْ من تفقّد كل آثاره. لا..لا.. هأنذا استرجعها في ذاتي الداخلية، كشريط فوتوغرافي. تعرضه كاميرا سينما، على شاشة مخيّلتي ... ياه...! ماذا أصابني؟ أجدني أتوفّز. أتحفّز. كأنني عدتُ أنخرط في تلك (الموقعة)، التي حدثت، في هذه المضافة الخربة. الأمر الذي دعاني، لأن أصعد ــ على الرغم من خوار همتي ـ إلى أعلى الجدار الغربي. على سلّم، قد وضع للزوار. وقفتُ وَمسحتُ بنظراتي الشاملة القنطرتين اللاتين بقيتا قائمتين بعقديهما الحجريين ـ (كعقد الريش) ـ والعوارض التي كانت تحمل (الربد) و(السقفيات). التي كنا قد

هدمناها كلها ـ نحن النشامى من أهل هذه القرية ـ نعم، الآن فطنتُ. هذه القرية، هي قرية (عرمان). وكانت قريتي. تفازعنا ـــ نحن أهلها ـــ وعملنا بالمعاول والرفوش والمجارف، في ثقب السقف، وهدمه على رؤوس من كان، في داخل المضافة من الجنود الأتراك. وهبط هذا السقف عليهم. وكأن السماء هبطتْ على الأرض.

أجل، لم نعد نحسب أي حساب، لأحد في هذه الأرض! فرمينا المحتويات، من تراب،وحجارة. وانهالت على أولئك العساكر الأوغاد، اللائذين داخل المضافة. وعلا عجاج الغبار، حتى سدّ اقطار الفضاء...

إيبهْ...! أيها الزمن! كيف تدور وتدور. وأنت تفتل بفلكة عرناس مغزلك، لتنسج بأيامك، التي تصنعها شمسك المذهبة، الأحداثَ والوقائع المخضّبة بالدم والنار، على ظهر هذا الكوكب العجوز ـ الأرض ـ تصنع عليه أحداثك. ثم تمضي وتترك آثارها، في اماكنها ثابتة. لتدقّ، للأجيال القادمة، نواسها، كنا قوس للذكرى، وكمطرقة للعبرة... ثم تنصرف لقضاء شأن آخر، في هذا الكون الرحيب الفسيح المليء بالسيارات والنجوم. ربما لتصنع أحداثاً ووقائع دامية أخرى،على كوكب غير هذا الكوكب.

إذن، على هذا البساط الأرضي. أراك تريد أن تظهر قدرتك، أيها الزمن الظافر القاهر. ليبقى كل (المخاليق)، هكذا دواليك أدواتٍ طيّعةً، بين يديك؛ لا يستطيعون فعل شيء، سوى تنفيذ الأوامر والتعليمات القسرية الجبرية!

وخواطر أخرى أدرتها في بالي، وأنا صامد قامتي المخلّعة. بلى، سأظلّ، وأنا المخلوق البشري الموصوم بالعجز والمحدودية. سأظلّ واقفاً مبهوراً، مدهوشاً. بهذا الدوران العجيب الخلاّق، الذي أرجعني، إلى حيث عشتُ، في حياتي الأولى، وأنا الآن أتكلّم عنها، في حياتي الثانية!

لا غرو. كنت قد درتُ مع الزمن دورتي العمريةَ الكاملةَ. ورجعتُ فيها، إلى النقطة الأولى في الدائرة؛ قريتي السابقة عرمان. هذه التي أحظى بمشاهدتها الآن. بعد أن سلختُ قرابة خمسة وسبعين عاماً، من عمر هذا الزمن، الذي لا ينتهي. إذ يظلّ يلفّ ويدور فلا يهدأ عن الغزل. ولا يكفّ عن الفتل، لحظة واحدة. لأجدني، معه، واقفاً الآن على ناصية هذا البناء الخَرب. الذي كنت قد تركته، في ذاك الزمن. نعم، عدت وتفحّصته،من جديد. ما زال على وضعه القديم. لم ينقص أي معلم، من معالمه. كأنني غادرته، منذ اسبوع، لا أكثر. لذا أعود وأكررّ شعوري

السعيد، فيما عثرتُ عليه، في هذا اليوم الأغرّ! أنه رحمة عظيمة من ربّ السماوات والأرضين، غمرني بها. حتماً ستكون، هي، الأبهى. في حياتي الحاضرة البائسة، في هذا (القميص الراهن).

تحرّكتُ. وأنا ألتفتُ إلى جنباته. أتقرّى، وأتحرّى، بكل جديّة ومصداقية. شعرتُ ان رئتيّ صارتا تزدادان اتساعاً، بازدياد الهواء؛ وأتنفس أكثر من اللازم. حتىّ استعملتُ أنفي وفمي معاً!

بشغف، درجتُ حول المضافة. هل أنا في حلم، أم في يقظة؟ تأكدتُ أكثر. بلى، هي التي كانت قد بذيت، كعلّية، من حجر بركاني أسود اللون، ككل الحجارة البركانية ـ البازلتية ـ التي بنيتْ بها بيوت بني الأعراف، في قرى جبلهم، الذي حللتُ، في كنفه اليوم. الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية، من سورية.

العلـّية- المضافة. بنيت فوق طابق أرضي. لتكون شارعة مشرفة، على الدور والسفوح نهاراً. ولتكون، أيضاً، منارة للطرّاق السادرين ليلاً، تحت زرقة سماء فولاذية. تشتدّ حلكة ظلامها، بعد منتصف الليل؛ في الساعة التي تسعى فيها الذئاب والضباع، لاصطياد فرائسها.

إذن. انا أبو حمّاد، أعود وأعيش، الآن،في قريتي. التي كنتُ أقطن فيها، خلال ذاك الزمن، مع زوجتي وأولادي. ونشارك،فيها، أسر أهاليها الطيّبين. وهم لفيف من عائلات أخرى. نرجع جميعاً، بنسبنا، إلى قبيلة بني الأعراف. القبيلة العريقة بأصلها العربي. والذي تعود جذوره الأولى، إلى أرومة مناذرة الحيرة، وملوكهم، من لخم وتنوخ.

تطلّعتُ إلى أمداء قريتي البعيدة والقريبة، تأكدتُ أنها تقع في الهضبة الجنوبية الشرقية،من الجبل. عدتُ وأمررت ناظرتَيْ عليها. ومسحت بيوتها المتناثرة على سفوح هذه الهضبة المرتفعة. بَانَتْ كمصاطب وجلالٍ، لمدرجات رومانية قديمة. كان المنظر بديعاً. الآفاق من حولي، غرقت في طوفان من الألوان. وفوق رأسي تجمّعتْ قزع من غيوم متشحةٍ بالأحمر تمخر شرقاً. والغرب على حافة الأرض، شرشف من وردٍ جوري، وقبة الفضاء اللاذوردي، تشعّ بألقٍ شمس ذهبية لطيفة. اتكأتْ بارتياح على خاصرة الكون الحانية.

اعتراني سؤال رئيس:

أأذهب، وأتفقّد لوحات قريتي الفنية البهيجة، التي منحتها إياها الطبيعة، لأحيا في ذكرياتها أكثر؟ أم أبقى ممترساً في بقعة ضوئي هذه ـ المضافة ـ ؟

أجل، إنني مرغم. فهذا المكان، بالذات، لا أستطيع أن أتركه، وأتزحزح عنه خطوة واحدة. فقد تولّدت فيه قوى مغناطيسية من نوع غريب، بل خارق. حجلتُ برجلي بضع خطوات ملتكَّة، وجلست على حجر، لأعبّ أكثر من صمت الماضي الجليل. الذي ران، على المكان بكل ما يحمله. أحسستُ بطنين خارجي. مددت يدي، نحو فراشة بيضاء. جاءت مجنّحة صوبي. يالبشارة الخير! إذن، سأبقى أعبُّ أكثر، من ذكريات (المضافة ـ الخربة). تركتُ نفسي، بكل جوارحها، ونوازعها تتملاّ ها، بعيون نهمة. لا تشبع من النظر. كانها تجسّدت شخصاً ثانياً ينوب عني. أمعنتُ البصر والبصيرة، وأنا أمايز الجدران الأربعة. وفتحات النوافذ المطلّة على الأحواش. والباب المدبوغ بالدم ودخان البارود؛ كعلامتين ثابتتين فيه،من علامات روائعه الخالدة. ثم انغمستُ، فيما تداعي إلى خاطري: كيف أن هذا الباب لم يغلق قط، منذ أن فتح في هذا الجدار، لا صيفاً ولا شتاءً. لا ليلاً ولا نهاراً. بل يظلّ مفتوحاً، على مصراعيه. ليهدي الضيفان، الذين يقصدون هذه المضافة، من شتّى الطرق والجهات. التي لا يطفأ لها سراج حتى الصباح. يشعل صاحبها قنديلاً،من نوع (الفنار)، الذي يتحدّى هبوب

الريـاح، بتـرس زجاجتـه. فيسـتمرّ يرسـل ضـوءه فـي الظلام إلى مسافات بعيدة.

والآن، أراه يفتح ليهدي محبي التاريخ والآثار، مثلي، ليعلمهم بما حدث، في غابر ذاك الزمان.

* * *

بعد أن أتممتُ جولتي حول المضافة. رجعت وعاينت السقف المهدم. عاينته من جديد، بعيني النديتين المدعوكتين، وقد غشاهما ضباب الدموع. شيء مفرح ومحزن معاً، أصابني، في هذه اللحظات. على كل حال. أنهيت مهمتي. وجدت القنطرتين عاريتين منفردتين. وقد انتصبتا بعقديهما، كقوسي نصر، بنيا في عهد القيصر الروماني (طرانجان). ثم غصتُ في ذاكرتي، لأنقّب تحت الردم. عرفت أن أرض المضافة، التي ما زالت مطمورة بالتراب. كانت مبلطة بحجارة بازلتية. وقد رصفتْ، دون أن تكون منحوتةً،كما يجب. وكانت، قد ارتفعت قليلاً، دكة حجرية، على جوانب الجدران. وطرحت عليها فرش من صوف، نُجِّدَتْ بإتقان، لتليق باستقبال الضيوف في كل وقت.

ثم تذكرت تلك السجّادة الكبيرة، التي كانت

تفرش، في وسط المضافة. لقد بَهَتَ لونها البنفسجي المشرّب بالأخضر، بفعل مرور الزمن. حتماً ظلت متشبّثةً، ببقايا الدم الذي علق بها. وقد جفّ ويبس. وكذلك البسط المفروشة على جوانبها، المصنوعة من خيوط شعر الماعز، لم تكن أحسن حالاً منها. إنها كلها، الآن، مسمولة بردم التراب والحجارة، التي كانت قد انهالت عليها، بعد انخساف السقف. الأمر الذي دلّ على هول العراك والقتال اللذين حدثا، في هذه المضافة.

وكيف تم القضاء على الجنود الأتراك المحاصرين، فيها، بعد أن كانوا قد اعتصموا بداخلها. وكادوا يقضون علينا جميعاً ـ نحن أهل هذه القرية ـ

نعم، أُراني قد علق ذهني بهذه المضافة. إذن دعوني أرجع إلى الوراء، بمساحة ما من مخيّلتي، ومن مخبوءات ذاكرتي. التي أشرقت عليّ حميمةً نقيةً. فكل شيء فيها يحدّث عن ماضيها. وكل معلم يحتفظ بشذا أمجادها. وهأنذا أجدني أجالس صاحبها، من جديد، كمن أبل من مرضه تماماً. لأعيش معه لحظات سعيدة مخطوفة، من تلك الحياة الهنيئة، التي كنّا نحياها، في الزمن الخالي. أرمقه بعيني هاتين، من فوق كتفي. إنه تربي وصديقي الشيخ الهم. ذو السخاء

والشجاعة، أبو إبراهيم خليل الجرمقاني. لقد أطلّتْ عليّ، من خلال سجف عيني الداخليتين، صورة وجهه الأبيض الطافح، مثل طلمة تنور منتفخة. صنعت من عجين مختمر، ولحيته الغزيرة، كبلاّنة، ذات الشعر الأشيب، التي كانت تغطي ذقنه والقسم الأعلى من صدره. رحتُ أتخيله، وهو واقف ملموماً بعباءته (الجوفيه). واقف بقامته شبه المنحنية، في صحن المضافة كعاسّ ليلي يستقبل ضيوفه من الطرّاق. ويرحب بهم، ببشاشته المعهودة. ونفسه السمحاء. وكله فخر وابتهاج، بهذه الخَلّة الكريمة، شيمة الكرم. التي ورثها خلفاً عن سلف. وكابراً عن كابر. يكرّس وقته، أُسوة بغيره، من بني الأعراف، لخدمة الضيف. وما يتطلّبه واجب الضيافة. كما يخدم العبد سيده. كما قال الشاعر العربي القديم:

«إنـــي لعبــد الضــيف، مـــا دام ثاويـــاً

ومـــا شــيمة لـــي غيرهـــا تشــبه العبــدا»

فمرحى وألف مرحى، لك، ولبني الأعراف كافة، يا صديقي خليل! في المناسبة. فطنت:

ذات ليلة بهيمة العتمة. كنت ساهراً، في هذه المضافة، لم تأخذني سنة من النوم. أطلت الجلوس. فقصدها قرابة عشـرين رجــلاً دفعــة واحــدة، حيــث استرشــدوا بنــور مصباحها،

الواصل إلى مسافة بعيدة، من الحدود الجنوبية.

رحب الشيخ بهم، و هو يمسد لحيته الكريمة. والألق يشعّ في عينيه:

أهلاً وسهلاً بالضيوف، في هذه الليلة الدامسة... تفضّلوا اجلسوا. كلوا... ثم ناموا، على الرحب والسعة.

شكراً لك، يا معزب الرحمن. نحن في حمى صاحب هذه المضافة العامرة، التي سطعت في أعيننا بالظلام، كنجمة الصبح!/ردَّ أحد الضيوف.

ــ من أين قادمون؟

ــ من وادي السرحان. قاصدين (أم حوران). وتهنا في شعاب جبلكم المبثوثة بين الأحراج، وأخاديد الأودية، بعد أن تخلصنا من مسارب البادية المضلّلة./أجاب الضيف نفسه.

ــ افلحوا،إلى الطعام. حياكم الله.

نعم. استقبلهم، بحضوري، وأكرم وفادتهم، هذا الرجل الكريم، الشيخ أبو إبراهيم خليل الجرمقاني، استقبلهم بحسن ملقاه وطيب محياه. وأشاع في نفوسهم الأمن والأمان، فناموا مطمئنين. ثم تابعوا سفرهم، بعد فطور الصباح.

بلى. إن كل إنسان، في جبل بني الأعراف، يحرص

كل الحرص، على نيل المكارم والتحلّي بحميد الشمائل، وطيب الأحدوثة، عن كرمه، ليكون الأنموذج المقتدى، في تنفيذ هذا التقليد العربي الأصيل.

ولحسن حظي، على الرغم من انتكاساتي التي لا تحصى، في حياتي ((الثانية)) هذه.

أن دهري، قد ابتسم لي، بعودتي إلى قريتي الأولى، في مصادفة هذه الزيارة البهيجة، التي فاقت كل التجاوز، في العلم، وفي براهين الفيزياء، وقوانين المادة المعروفة. لقد أحسستُ حقيقةً أن العالم لا قرار له ولا حدود. فها أجدني، الآن، أجرجر قدمي، بخطواتي الواهنة. وأمتّع بصري وبصيرتي معاً برؤية هذه المضافة، التي بقيت شاهدة على تلك المعركة المجيدة، التي حدثت فيها. تجاه صون العرض والشرف. وأعيد، بشريط مخيّلتي كيف كنت منخرطاً في تلك المعركة الشهيرة، كمقاتل شارك، فيها، مع رجال قريته، بكل بسالة. وأُراني أثني أصابع يدي اليسرى الخمس، وأنا أعدّ قتلى جنود الأتراك الذين سطرتهم بسيفي القِرضاب. كنت بطّاشاً قُدَّ قلبه من حديد، في هذه (الموقعة)؛ وهكذا كان غيري من المقاتلين، حتى دعج الدم غزيراً في المضافة. وفاض على السجّادة والبسط، وزرب إلى

الخارج من الميزاب، كما لو أنه يزرب في يوم ماطر!

فعبّ، من سعادتك، يا أبا حمّاد، بما أنت مفعم به، في عصف الذاكرة هذا. وبما أنت مشدود إليه من الغبطة والرضى.

يا...ه! يا للقدر العادل! حقاً لقد عدتَ وعدلت بي ـ أيها القدر الرحيم.

*   *   *

الفصل الثالث

ها أُراني أعجب من نفسي. بل أغبطها، وأغار منها، على هذه النعمة التي دفقتْ عليّ. وخصّني بها رب العالمين. جلّ وعلا. أفاضها، من لدنه تعالى عليّ، وتكّرم وزاد في كرمه سبحانه، حيث وجدت ذاتي، في هذا العالم المطلق، الذي لا حدود له. أشعر أن عمري فيه صار قرابة المئتي سنة! وكأنني أعيش جيلين دفعة واحدة. وأنا موجود، حالياً في قريتي الأولى عرمان.

يا لفرحتي! إنها أضحت محطّ رحلتي، لرأسي هذا الذي أحمله الآن بين كتفي. والذي يشرف على ما أشرقته، في نفسي، هذه القرية الخالدة، من أحداث جيلي الأول. حين انبسطت ذكرياتها على مساحة شاسعة من صفحات ذهني. كأنني أقرؤها في كتاب...

تطلّعتُ من جديد، والتفت نحو سائر الأرجاء، والرغبة تحدوني أكثر فأكثر، في هذه ((العودة))، والعود أحمد ــ كما يقال ــ

إيبه، يا للرجعى إليك يا عرمان العز! ما زالت الطبيعة تكسوكِ بغلالة باهرة ناعمة، من الظلال، والألوان.

إذن، سأكمل (المشوار)، مع مخيّلتي. واستمرّ، في سرد الأحداث، ومتابعة القضايا، مع أهل قريتي.

مرحباً يا أهل قريتي عرمان. استميحكم عذراً، إذا ما عدت أذكّركم بـ ((معركة المضافة)). وشرح الأسباب، التي آلتْ إليها. ستقبلون رجائي. وأنا أشعر بينكم، بصدق حميميتكم، ودفء ذبرتكم الرفاقية، التي تصدر عنكم، في تحياتكم وترحيبكم.

ارتعش منخراي ، هاهم يمرون، ويجولون بعباءاتهم السود. تدفّ على قباءاتهم المقلّمة، بخطوطها البيضاء والزرقاء. أوا...ه! يا للسويعات الودود التي سأقضيها مع أطيافهم، في هذا الهدوء الوسنان. ومن خلال هذا الهمس العذب!

نعم، أجدني أصغي إليهم، وفمي نصف مفتوح، لأعيد معهم مجريات تلك الأحداث، وما رافقها من شؤون وشجون.

أ غوص في أعماقي، كما يغوص السمك في قيعان البحر. وأقف على تضاعيف جوّانيتي، ومنحنيات تضاريسها الباطنية، لأرى المشاهد، التي انهمك بها أهالي قريتي. ولا سيّما النساء.

إذا قامت كل ربّة بيت، تجرجر خطاها،مثقلة بهذا الواجب القسري، في صنع الولائم. يحفّ بها أطفالها، كقطيع من الخراف. أف! متى كان الكرم يفرض فرضاً، في قرى جبلنا؟ لم يعتد الناس، هنا، تقديم الضيافة بأوامر عسكرية. بل جرى العرف أن يولموا الولائم بصورة اختيارية. وتقدم بطيب خاطر بحتٍ، بعد أن تدار فناجين القهوة المرة، على الضيوف، رمز هذا الكرم (الحر).

وينفر إليّ من بين (الأهل) أبو سليم هاني المتني: أنت تعرف، يا أسعد الجندلي ـ وهذا هو اسمي السابق- أننا لا نقدّم (الكرمات)، إلا للضيوف الكرام. لا (للعساكر اللئام) و.... / غصّ ببقية الكلام.

نعم، هذه الولائم التي قدّمت للجنود الظلاّم. بعد أن طلبوها بفظاظة وغلظة خارجتين عن تقليدنا المألوف، بخاصة أنهم فرضوا أنفسهم بالقوّة. اعتبرها الأهالي إهانة

كبرى لهم. ولعنة حلّت عليهم. ولكن بلعوا (ريقهم) تفادياً لسوء العاقبة.

عمّت (الكرمات) مضافات عرمان كافة. وتنافس، في التهامها، العسكر الهمج بأفظع درجات الدناءة والوقاحة، بتناول الطعام، لدى بني البشر:

ــ كلْ بشراهة، يا (أوكجك). وارمِ العظام على الأرض.

التفت (أوكجك) العسكري، الذي كان يحمل بشكله وسامة شاب جاوز العشرين بقليل. وله عينان جميلتان. تشبهان عيون النساء. التفت نحو العسكري الآخر، وقال له:

ــ أهكذا تريد يا (إكمك)؟

ودلق (منسف) الطعام،بكامله على الأرض. ثم ضجةٌ صاخبة من الضحك. تلامعت بها الأسنان. كما تلامعت عيون الغضب لدى (المعازيب) وكشّروا. ولكن تمتموا في نفوسهم: «يا لصبر أيوّب»!

أجل الصبر أوجب، ذفدت المناسف المعرّمة بالبرغل ولحم الضأن. والمضمّخة بالسمن الربيعي، وشراب (المليحية)

المعروف. وتراني أسمع دقدقة خلف شعوري؛ فتنا هت الكلمات إلى سمعي. رددتُ:

ــــ ماذا يا هاني؟

ــــ صبرنا، يا (أسعد)، بما فيه الكفاية، على تحمّل هذا الضيم ـ كما تعلم ـ وعلى تصرفات الجنود، ذوي القحة والوغد، لقد خلطوا الحبوب: القمح بالشعير. والعدس بالحمص... هدموا كواير المؤن. وكسّروا الأواني، وأدنان السمن والزيت والدبس، و...

ــــ لا تكملْ، يا هاني... / حرّكتُ شفتي بالكلام، فعلاً. هجم الدم إلى رأسي. يجوز بانَ وجهي احمر الآن.

ــــ أنت تعرف يا (أسعد)، كم كظمنا غيظنا وغضبنا؟

ــــ أعرف...أعرف، يا هاني.../ قاطعني:

ــــ وتعرف كم تحمّلنا من زنخرتهم، وبشاعتهم. وكنا كمن يعضّ على إصبعه. ونقول: هؤلاء، عندنا، يسمّون ضيوفاً. والضيف لا يسمح بقتله. أو زجره، على الأقل. وإن كان فظاً غليظاً.....

في حقيقة الأمر. كانت (طولة البال) هذه، منا. كمهادنة في (القضية). أي إننا لا نريد أن نخلق فتنة تجرّنا

إلى حرب عصيبة مع السلطات العثمانية. لذا غضضنا الأنظار عن التصرفات السيئة و عن كل التجاوزات في (الآداب) والسلوك. وخضنا معهم، تدريجياً في سيل من الملق والمذق. على الرغم من تجرّع السمّ الخبيث، لهذه المداهنة المرّة. أخيراً، تبخّر، في أدراج الرياح، كل ما تدلّسنا به. إذ كان كناية عن هرطقة وهراء.

وصل السيل الزبى:

ما رأيك (أسعد) بضيوفي العسكر؟ أأقتلهم على شائن فعلهم؟ يا شيخ،ما عدتُ أطيقُ اصطباراً. لقد هدموا (مكور) الطحين. ومزّقوا سعن السمن، ودلقوا ظرف الدبس على أرض البيت، وعند الاعتراض. بعد أن تزحلق الولد بالدبس العائم، وكسرت رجله: «اسكت أيها العجوز المشاغب».

ياجـ....

اخرس أيها المهذار.....

ــ كيف سأصبر يا (أسعد)، على ذلك. وأنا ابن الحمدان المعروف بشجاعته و..../ وتقادح الشرر من عيني ابن الحمدان هذا.

ــ طوّلْ بالك، يا جاري. مهما تكن من إهانات.

فالضيف لا تجوز إهانته.

ويتأجّج أكثر التذمّر، في حميّا النقاش:

ـــ يا شيخ، أبو إبراهيم . قضى العسكر على الدجاجات ولم يتركوا في القنّ صوصاً واحداً.

ردَّ الشيخ أبو إبراهيم، وهو يصلح وضع حزام خصره:

ـــ الصبر...الصبر... يا محمود النجم.

* * *

ـــ يا شيخ هايل الهادي، العسكر أخذوا ينظرون إلى البنات، في أرض الدار، نظرات مريبة...

ـــ لا تخرج النساء إلى أرض الدار، يا جابر الفرحان.

وكان هذا (الجابر الفرحان) رجلاً ضئيل الجسم. من فرط سقمه. ولكنه استأنف بنبرةٍ قويةٍ:

ــ يعني أتـ... / قاطعه الشيخ هايل الهادي:

ـــ الوضع على هذه الصورة، ما زال في الحدود المقبولة... والله يجيرنا من الأعظم، يا جابر.

وفي اليوم الثاني:

ـــ يا بن الهادي. صاروا يبصّون، من خصاص الأبواب

المغلقة. وكل منهم في عينيه وميض ذئبي.../ بصق عبر الشرفة، وتابع:

ــ يعني يجب أن.../

ــ سنصبر حتى يفرجها الله تعالى، علينا.

ــ يا....

ــ يا....

* * *

اعتراضات نارية. كنتّتْ عن كبت نقمة عارمة. راحت تدور على الألسن. وتضطرم في الصدور. العقلاء منا قالوا: هدوءاً أيها السادة! لا تشعلوا فتيل النار، قبل الأوان، مع هؤلاء الأوباش.

* * *

أجل، كان البكباشي ممدوح باشا، القائد العسكري العام، للمنطقة الجنوبية، قد أرسلهم، كمفرزة تأديب، إلى قرية عرمان، مَرَز شاربه الطويل المصمّغ بالشمع العسلي. وخاوص بعينيه الخرزيتين، الزرقاوين ثم ألقى إيعازه الصارم:

«يوزباشي مشرف آغا، كن على رأس ثلاثين عنصراً، كمفرزة تأديبية،إلى قرية عرمان، بجبل بني الأعراف. هيّا انطلق».

وكانت تلك الضيافة اللئيمة. وغير المسبوقة، في تاريخ ضيافات بني الأعراف. وكنا صبرنا عليها على الرغم من الفقر المدقع، الذي حاق بالأهالي، بسبب تردّي الأوضاع الاقتصادية، فكلنا فلاحون. حياتنا المعيشية، من اليد إلى الفم. وولائم الكرم تلك. كانت تقدّم للضيوف من جعالة الأسرة الضرورية، لا غير!

* * *

وبالمناسبة، أتذكرّ أيضاً، أن ثمة أسباباً آلتْ بأهل قريتي عرمان، إلى سوء أحوالهم المادية، في ظل الحكم العثماني. فالجبل كان محاصراً، من جميع جهاته: جيرةً، وبدواً، وسلطات عثمانيةً. لذا اقتصر سكانه، على مواردهم الذاتية المحدودة،من نتاج أرضهم المحدودة. الأمر الذي جعلهم بعوز دائم، صابرين على الشظف ومكابدة الضنك. وهنا، لعمري! تصدق المنافسة، في تقديم وجبات الضيوف، مثل سيرة من عقر ناقته الوحيدة لضيفه.

إذن. حجب المؤثرات الخارجية، جعلهم يعيشون حياة ذات خصوصية. حياة عريقة بطباعهم، وشموخ جبلهم الأشمّ، الذي ذادوا، عنه بالمهج والأرواح، حتى جُبلَ ترابه بدماء شهدائهم، هؤلاء الذين تناقلت الركبان، من كل الأصقاع، أخبار بطولاتهم الخارقة فطارتْ كالأساطير.

فأفعمْ يا أبا حماد (الحالي). بقرية (أسعد) كـ (الماضي)؛ وصورُها تطرقك من كل مكان. بلى، فلا فكاك، لك، عنها. وعن حياة أسعد الجندلي فيها. وعما تتضمّنه مخيّلتك، من تلك الحياة الغابرة. فتوغل أكثر فأكثر،في تفاصيل معيشته، وقفْ على دقائقها، تحرّك الآن، في الأزقة، في البيوت.... هَـهْ...! ها هي ذي داره. و ها هو ذا (أكرم) ابنه. ذاك الشاب العنيف، الذي كان قد استدعاه ليحمل معه المنسف ذا الحلقتين، المعرّم بطعام الوليمة، كبقية مناسف مضافات القرية، في ذاك اليوم المشؤوم...

وضعتُ يدي على رأسي. يا الله! ماذا يحدث لي الآن؟ وفاضت الصور في فضاءات ذهني. نعم ظهرت صورة ابني أكرم الحقيقية أمامي، بوجهه المستدير، ذي اللون الحنطي، والنون الغائرة في ذقنه، والقامة الفارعة. و عادت بي الذاكرة نشيطة شفافة، حين هممنا معاً أن نعبر باب

المضـافة. والمنسـف الكبيـر بـين يـدينا، لنقدمـه، إلـى الجنود الأتراك. لقد كان نصيبنا ثلاثة منهم. ولكن سرعان مـا توقفنـا، بـل تركنـا المنسـف علـى الأرض، دون بـاب المضـافة، بقليـل. وهُرْعنـا جريـاً، عنـدما سـمعنا صـوت الطلقات النارية: (طاخ...طاخ...). ثم تلاها صوت جريح ذبيح: (آخ...آخ). التقينا مع لفيف من أهالي القرية. وتابعنا الركض، نحو الباحة القريبة من مضافة الشيخ (محمود أبو خير). صاحب ذاك النداء الحزين. علّنا نعرف ما الخبر؟

كانت قد جرت ملاسنةٌ، من النوع القاسي، الذي يجعل الدم يصعد فائراً إلى أعلى الرأس، بين الشيخ محمود، وآمر المفرزة اليوزباشي مشرف آغا، الذي كان مارّاً في الساحة مع مساعده الضابط (عبده أفندي)، ونفر من الجنود الحرّاس. شـاهدهم الشـيخ محمـود، وهـو يعقـد طرفـي كوفيتـه بعمامتـه البيضاء، التي بانت تحتها رقبته اللحيمة، وقد سفعتها الشمس بلفحها الكالح. جرّاء العمل في الحقول. لقد كان هذا الرجل قد اكتسب بجسمه العبل عافية فائرة: فاندفع صدره إلى الأمام، بنشق عبق الكروم، وشذا الهواء المغسول بماء الأمطار، شتاءً وربيعاً. كما أصبحت لهُ مشية شمّاء. صار يعرف بها وتميزّه عن الآخرين.

وقف بقامته الضخمة. وقد اشكل طرفي قبائه الأزرق، بحزام خصره. وكشف عن عضلات زنده اليمنى(ليقفّر) السمن و(المليحية)، على المنسف، الذي نقله إلى المضافة، مع ابنه حسان. ولما انتهى من السكب. التفت ناحية الساحة العامة، قبالته. فالتقتْ عيناه موكب مشرف آغا. وكان هذا الضابط يدرج بجسمه المارج، وقد زادته الحياة العسكرية قسوةً وغلظة في قسمات وجهه وطباعه معاً. نفرتْ خصلة شعر من تحت (قلبقه). وتدلّت على فوده الأيسر، بشكل صبياني. ظلَّ يكردح سادراً، لا يحسب حساب أحد في هذه القرية. وغير آبهٍ بأي شيء فيها.

تقدّم الشيخ محمود، نحو الباب. ودعاه، قبل أن يتجاوز داره، ليتناول الطعام من وليمته. إنه لمن العيب الفاضح، لدى بني الأعراف، ألاّ يدعى مار في الطريق، إلى الأكل، و(الطبق على الأرض). أَوثَقَ الشيخ محمود يديه، على جانبيه. بل كتفهما على صدره. كمن يصمد قامته أمام مصوّر فوتوغرافي. وأظهر كل ما يحمله، في أعماقه، من طيبةٍ وانسانية:

تفضّل، مشرف آغا. تناول طعام الغداء. ثم تنصرف إلى اعتقال بقية النواطير.

....................../ لم يرد مشرف آغا.

أفرج الشيخ محمود شفتيه بابتسامةٍ شوهاء، كشفت عن نقص في أسنانه. لم يبالِ، كرّر:

تفضل يا (يوزباشي). وليمتنا جاهزة.

غير أن الضربة القاصمة، كانت قد حلّتْ، في الجواب الوقح، الذي صدر عن الضابط المتغطرس. وتلقاه الشيخ محمود، كقذيفة مدفع (طوب). فغر (مشرف) فماً مكشّراً، فالتمعت أسنانه، كأسنان حيوان مفترس:

ستكون رقبتك، عما قليل، يا محمود، مقرونةً بالرسن مثل رقبة حمار. وستقاد مثلهم إلى (الزريبة ـ السجن)....

ثم حرّك رقبته، بعجرفة، وعنجهية، ليرى شارة الكتافيتين، كضابطٍ كبيرٍ. وتابع سيره.

أف...! ماذا سمع الشيخ محمود أبو خير؟ طارتْ (ضبانات) عقله من رأسه. هذه الإهانة لم تصب أحداً، من أهالي عرمان، من قبل.... حقيقة. لم يعد الرجل يرى أمامه إلا ذلك السيف المودوع، في بيته. صافح مقبضه بسرعة البرق. واستلّه فاقد الأعصاب. مستطير اللب. منذ زمن بعيد لم يمتشق هذا (الصارم).... الدنيا كلها أضحت تساوي «قشرة بصلة». أشهرَ حسامه بيمينه المطواعة، التي تمرست،

تماماً،على الضرب به، بشهود عدل من أقرانه، هجم وهو لا يعي ما يردّده من السباب والشتائم: «.... سافل.. وقح...نذل. أنت يا مشرف الكلب. يا ساقط... يا مرذول.. (ولكْ)،أنت ستربطني كحمار مبلمّ. وتقودني إلى الحبس؟!....(ولكْ) دولتك. وسلطانك يعجزان عن ذلك... ويدك أقصر من شحمة أذنك....(ولكْ) الذي ينال من كرامتي لم تلده أمه بعد. (لحّد، وأنا محمود أبو خير...».

بيد أن كل هذه العبارات النارية، قد أسكتتها، عيارات نارية من نوع آخر. عدة طلقات من بواريد (عبده أفندي)، والحراس. نفذت من جسد الشيخ محمود. فسقط أرضاً. ولم يتمكن من الوصول إلى غريمه مشرف آغا، ليفصل رأسه عن هامته جزّاً. كما كان ينتوي. خمد الشيخ الهائج المائج جثةً هامدة. بعد أن مرقت رعشات ضعيفة عبر وجهه المتعب الذي اصفر في الحال.

أجل رأيته بأم عيني، في ذلك الوقت. كما رآه غيري، من الفازعين. وكما أراه الآن، بعيني الداخليتين. كان يتضرّج بدمائه. وتختلج روحه خلجاتها المتسارعة الأخيرة إلى الأبد. وقد تعفّر جسمه وثيابه بالدم الممزوج بالتراب. ولكن كفه اليمنى ظلت عالقة بمقبض سيفه. مسحتُ بيدي

الضخمة على سحنته الشاحبة. وطلبتُ له الرحمة من رب العالمين. ثم انخرطت مع الذين التفوّا حول الجثمان. وكنا كمن فقد العقل والحسّ معاً. هجنا ومجنا جميعاً حول جثة شهيد قريتنا. ثم هجمنا، ونحن في أعلى شعور التأجّج. وعندما يهجم رجال عرمان الأشاوس. لا يقف أمامهم حاجز ولا يردعهم رادع!

طبعاً، تضعضع وضع (المفرزة). وعضَّ مشرف آغا، على ذؤابة شاربه المروّس الأسود، ندماً. بل خاف على روحه، وعلى جنوده، فأمرهم، فوراً، بالاعتصام، في مضافة الشيخ أبي إبراهيم خليل الجرمقاني، لأنها علّية استراتيجية مشرفة على الدور والأزقة والساحات، في القرية. وذلك، بعد أن قرع بوق النفير العام.

نحن، من جهتنا، تحلّقنا حول دار، المضافة، كدائرة محكمة التي ما زلتُ بكنفها. أتلقّى منها نبض المعلومات والحوادث، التي تفدّقتْ لدي. حتى رفعت صوتي جهيراً بكلمات الغضب، وأنا أتذكرّ نفسي عندما اعتليت برميلاً حديدياً فارغاً، وصرختُ بتلك الكلمات والنخوات. ثم تركته ليتناوب عليه غيري من الخطباء. يتهتهون ويضطربون بكلماتهم ليبحثوا عن ألفاظ ومفردات أخرى.

أخيراً طلبنا من الجنود الاستسلام، دون قيد ولا شرط. ثم كرّرنا إنذارنا كبراءة ذمة. قبل أن يحلّ بهم الفتك والقتل. فأبوا. إذن، إلى الجحيم! يا أوغاد. وَعَلَت الهتافات مثل (دقّ الطبول). ثم هجمنا وانهالت الحجارة من كل صوب، على المضافة المحاصرة.

ولكن، هذه المضافة من جهة أخرى، أصبحت متراساً، ووسيلة استحكام للجنود اللائذين بها. إذ صبّوا علينا منها سيلاً من الرصاص. وسيلاً من السباب. بلغتهم العجماء.

استمروا يطلقون عيارات بواريدهم من أنواع (أم زر، أم زلاّقة، إم ولاّعة) من النوافذ المشرعة، ومن الباب المفتوح، يطلقون رصاصهم، علينا، نحن المحدقين بهم كالإسوار بالمعصم. لم تختلج قلوبنا بالخوف. بل غلى الحقد في صدورنا أكثر. وصمّمنا على الصمود. وتعالت نخواتنا حمماً طامية.

ولكن ما العمل؟ للآن مازلنا دون فائدة.

من جهتي طحنتُ أسناني في فمي. وشعرت أن الأرض أخذت تدور بي وترتمي تحتي. عندما ارتمى بجانبي أبو سليم هاني المتني. مستلقياً على ظهره. فقد اخترقته رصاصة غادرة، من الأمام.

على كلٍّ. لا يهم. اقتربنا بزحفنا. وضيّقنا الخناق على الجنود. علّنا نقتحم المضافة. ونلقي القبض عليهم كأسرى. أو نجزُّ رقابهم كخراف؛ إذا ما استمرّوا بعنادهم.

وانتخينا: «....عليهم النشامى... هيا يا شجعان، يا رجال عرمان...».

وأذكر أنني صحت بعالي صوتي: «لَحَّدْ، وأنا أسعد الجندلي... يا لثارات شهدائنا....».

نعم. كان قد سقط أكثر من شهيدين في هذه (الوقعة). ومع هذا، ظلّت هذه المضافة عصيّة علينا. كيف سيكون تعاملنا معها؟ بيد أن الشجاعة عادت ودبّت بنا من جديد. حين رأينا النساء من خلفنا يمطرننا بأوراق الأشجار وأغصانها الغضّة. ويطلقن زغاريدهن الحماسية اللاهبة. فالتحمنا بالأرض انبطاحاً، وزحفاً، لنقترب من الجدران أكثر.

غير أن واقع الحال، ليس كما نروم. فالجنود اللائبون، في داخل المضافة. بذلوا كل جهد مستطاع لديهم للحفاظ على أنفسهم. وفق غريزتي حب البقاء، وحب الحياة. فنلنا الأمرّين من سلاحهم. كان رشاش رصاصهم ينهمر علينا، كمدرار المطر. صوّبوا بواريدهم، في كل الاتجاهات. وبشكل عشوائي وهستيري. فتفرقنا، دون وعي، ولذنا بأسيجة

الأحواش والدور. ومنا من لطا بجانب جدران دار الشيخ الجرمقاني نفسه. ماذا تفيد العصي، والبلطات، والهراوات. حتى السيوف (الهنادي) تجاه النار الشيطانية (المكبرتة)؟

والآن. أشاهد نفسي، كيف هرولت حاملاً جسمي الثقيل ذاك. لا جسمي المخلّع هذا. ثم انبطحتُ أرضاً ورزيم الرصاص يئزّ فوق رأسي، كرزيم الرعد القاصف. كدتُ أُحْسَبُ، في عداد الشهداء من قتلانا. ولكن (طول العمر) شفع بي.

جمعت شتاتي، لأكون أكثر صلابة. تلمّست جسدي المرمى. وحمدتُ الله تعالى، على السلامة. ثم نهضت. رأيت عدداً من الرجال، قد تلبّسوا جدران دار أبي إبراهيم خليل. ويهمّون بالصعود، إلى المضافة. لحقتُ بهم بحذر ومداراة ـ الروح غالية ـ والجنود ما زالوا يطلقون نار الموت. طبعاً نحن الرجال العزّل، نطمح إلى أن نغنم بضع بواريد من الجنود. لنتعامل معهم بالرصاص ندّاً لندّ. صعد إلى سطح الدار ثلاثة من رجالنا. منهم أبو إبراهيم خليل. صاحب هذه الدار. تقدم جنديّ من باب المضافة. عليه اللعنة بَانَ لنا حليق الوجه، متين البنية. رمى بارودة، من نوع (أم زلاّقة). استقرّتْ على بعد عشر خطوات من الباب. وأخذت أشعة الشمس تتراقص على سبطانتها لامعة ممراحة. يا للصيد الثمين! اكتساب بارودة،

في هذا الوقت العصيب. لأمر مغرٍ تماماً. ويحتاج إلى تضحية. تَحادَبَ أبو إبراهيم بجسمه كالسلحفاة الكبيرة. ومَدَّ يده المشعرة، التي تشبه المطرقة، ليأخذ بها البارودة ــ (الطعم) ـ ولكن حين التقطها، نفذت من جسده عدّة طلقات. فتجندل قتيلاً أمام المضافة. ودفق الدم على قبائه الأزرق. وحدلتْ بعيداً عمامته البضاء. وظهر للملأ رأسهُ الحليق (كرجل دين). ثم استشهد رجلان آخران، بهذه المصيدة. كانا أيضاً، من الشجعان، في قريتنا، هما: هاني المقت وسعيد الجوهري. احترنا نحن البقية من هذا الرهط الأعزل، في أمر هذا الشرك الخبيث ـ البارودة الطعم ـ حتماً سيُقضى علينا واحداً تلو الآخر. إذن يجب أن نقرّر مصيرنا إزاء الخطر المحدق بنا والمتمثّل بالمضافة.

فالجنود ما زالوا يزخّون رصاصهم في كل الاتجاهات. لقد فقدوا أعصابهم تماماً.

جرت مشاورات فيما بيننا. وتطارحنا الآراء، في كيفية القضاء على هذه الآفة البلية! أخيراً قال الشيخ هايل الهادي:

-أنا عندي فكرة يا جماعة.

- ما هي، يا شيخ هايل؟ /أجابه جابر الفرحان، و هو يهز بلطته.

- أن نهدم الدار عليهم، برمتها.

أجاب قاسم الحمدان، بعد أن أماط لثامه:

يعني كما فعل شمشون!

لم يضحك أحد لهذه الطرفة التاريخية. لا مجال، الآن، حتى للابتسام.

ثم سمعنا صوتاً جهورياً، من الخلف:

علينا بالسلالم والمعاول والرفوش، والمجارف، يا جماعة.

ولِمَ، يا محمود النجم؟ / أجبته شخصياً، وقد انتاب حنجرتي شيء، من تشنّج مرّ.

-ـ يا أسعد الجندلي، حتى نصعد إلى سطح المضافة ونهدمه على الجنود بالكامل.

ــ والله...! هذه فكرة!... هذا حَلٌّ ما بعده حلّ.

ــ أجل.... فمتى سندفن جثامين شهدائنا المرماة، بهذه الطريقة الوحشية؟ لقد انتفخت بطونهم مثل (البو).

ــ نعم إنهم شهداء أبرار، نجباء، كرماء. كانوا يفتحون مضافاتهم للضيوف، وإغاثة الملهوف.

ثم دوّى صوت جماعي هدم السقف على الجنود، هو الحل الصحيح.

أجـدني، قـد اقشـعرّ بـدني، كـان لا مجـال للعواطـف والمنـاورات. الأمـر يجـب أن يحسـم فـي الحـال، قبـل أن يستفحل الخطر. الوقت إن طال فسيكون لمصلحتهم. فهم يأملون بوصول نجدة قوية، لفكّ الحصار عنهم. ولقتل أهل قرية عرمان عن بكرة أبيهم. وسأعذر نفسي إذا ما شعرت الآن بالرجفان يخترقني إلى أعماقي. كما اخترقني، حين تلمّست صدغي، ورأسي، وقحف قذالي. هل أصابتني تلك الرصاصة المرعبة؟ التي كانت تئز نحوي. لا. لا شيء. بل أطاحت بعمامتي عن رأسي.

*   *   *

إيييْهْ...! خذْ نفساً. يا أبا حماد. وحملق. وتأكّد. بلى، لقد أمّحى الزمن عندك. وعاد حاضرك مرتهناً بماضيك، أيها المحبط. إذن. تـابع مشـوارك مـع ذاكرتـك مـن إيحـاء هـذه المضافة. قبل زوال النهار. فها هي ذي بقع الضياء الغاربة تتخافق، من خلف البيوت والأشجار مشتعلّةً حمراء. فازدَدْ، معهـا، اشـتعالاً، بفـرز الأحـداث.. ولتتنـدح أخاييلـك، فـي فضـاءات روحـك. ولتـدوِّ، فـي مسـامعك الآن. كمـا دوّى الرصاص، الذي انهمر، من قبل الجنود القتلة... وتذكّر،

واصغِ، لدقدقة الشعور، وما خلف الشعور، وهي تترجم لك ذاك المشهد الرهيب!

ـ ها هي ذي السلالم، وأدوات الحفر جاهزة كلها، يا رجال عرمان.

ـ إذن علينا، يا نشامى، بالهجوم الكاسح الماحق، وفق قاعدتنا التاريخية، في الحروب ـــ ((ياغيرة العرض والدين))ـ

ولكن ثمة اعتراض:

ـ ألا نكون قد رّملنا نساءنا ويتّمنا أطفالنا؟

فردّ فهد السلامة، على صاحب الصوت المجهول:

ـــ المضي مع الجنود، على هذه الصورة من المناوشات، سيقضي علينا واحداً تلو الآخر.

ـ ياجماعة الخير. بعد هجومنا الصاعق، وهدم السقف، على هذه الشرذمة الضالّة. سيبقى منا رجال أحياء، من أجل حماية النساء والأطفال. / أجل. كان الذي نطق، بهذه العبارات الشيخ سليمان شهاب. وهو رجل مقبول الرأي والخاطر. وإن هي إلا لحظات، حتى تسلّقنا السلالم إلى سطح المضافة. وقد سقط منا خمسة شهداء برصاص الأعداء. لا يهم. بل الأهم أنه عملت، بأيدينا المعاول والرفوش والمجارف

عملاً عظيماً. ثقبنا السقف. ورمينا ركامه على أفراد المفرزة. نزعنا عن القناطر العوارض من (الربد)، والسقفيّات. فانهالت كلها مع التراب، على الأرض، واختنق الجنود بالردم والغبار. وتحوّلوا إلى جثث هامدة. تحت ثقل هذه الأنقاض الهائلة. ثم قضينا على من بقي منهم حياً ـ وخمسة من نصيبي ـ وكان من بين القتلى آمر المفرزة مشرف آغا، ومساعده (عبده أفندي). وغنمنا البواريد الثمينة.

نعم. لم ينجُ، من هذه (المذبحة). سوى جندي واحد. نفذ بنفسه خلسة. إذ قفز من النافذة الغربية. وشب على ظهر حصانه، من شدة الخوف، وهرب. حتماً سيعلم قائده البكباشي ممدوح باشا، بدمشق، ما حلّ بمفرزته المنكوبة. وأذكر أنه نجا أيضاً ابن مشرف آغا نفسه، الذي ارتمى من شاهق المضافة والتجأ إلى النساء. فحميناه عملاً بقانون الشهامة.

وهكذا، فرجت هذه الضائقة الكريبة، من قبل رب العالمين، بعد أن كانت ساعاتها المعدودة طويلة طويلة علينا، كأنها السنون.

وفي هذه المناسبة. اجدني استذكر ما كان قد أنشده، في هذه (الموقعة)، شاعر بني الأعراف ووجيههم الأول (شبلي الأطرش). إذ أرسل قصيدة مشهورة، من منفاه في (أزمير).

عندما علم بها.

ومن أبياتها:

جانـــا خبـــر مـــن يـــمْ صـــلخد وعرمـــان

نعمـــين يـــا وجـــوه الــــذياب المتـــالي

عبـــده أفنـــدي شـــارب الخمـــر ســـكران

جـــاهم يهـــادر مثـــل فحـــل الجمـــالي

جـــوه النشـــامى. وبعـــد لليـــوم مـــا بـــان

هـــدّوا عليـــه قصـــور شـــمّخ عـــوالي

وللحـــين تحـــت الـــردم مـــن غيـــر دفـــان

مـــع مشـــــرف آغالجهنـــــم يـــــوالي

*   *   *

الفصل الرابع

أجل. ما زلت واقفاً، في كنف قرية عرمان. وأنا قابع بهيكلي الأعجف، المشمول بإيهابي الرقيق ولكن، في الوقت نفسه، قابع في روح ذاك الرجل الذي كنته ـ أسعد الجندلي ـ أتملاّها، وأنعم النظر، من حولي، في كل اتجاهاتها.

بلى، لم تتغيّر بيوتها المتراصدّة، المتلازّة، كثيراً. إذ حافظت على وضعها السابق، وعلى الحجر الذي بنيت به. حين اقتطعه البنـّاؤون من صخر الجبل البازلتي الأسود الأصمّ بعد أن صنعته البراكين، منذ غابر العصور.

والأزقة الضيّقة، ما زالت، كما عهدتها، هي هي. ولكن عندما قفزت، بنظري، عن (جرم) القرية القديم، نحو الأفق، حيث تتلامس شفة السماء، بشفة الأرض. كأنهما تتلاثمان. شاهدت قرية جديدة أخرى. ولدت خارج

الحـدود الإداريــة، لعرمــان الســابقة. فثمــة ســاحاتٌ فسيحة، وطرقات منسّقة مستقيمة. قد اتسعت، وأصبحت شبه شوارع عريضة. تصلح لمرور السيارات والحيوانات معاً. والدور الإسمنتية ذات اللون الأشهب. تناثرت على جوانبها. فاحمد الله تعالى، يا أبا حماد، بل، يا أسعد الجندلي. علـى هـذا التقـدّم الـذي طـرأ علـى (عرمانـك) الأولـى. وأن أهلهـا، الآن، يعيشـون بـألف خيـر. علـى العكـس، بمئـات المرات، من حياة الفقر والشحّ. التي كانوا يحيونها، في ذاك الوقت.

إيِيْيـهْ...! أجـل. تـذكرت كيـف كنـّا نغـدو، فــي كـل صباح، قبل بجّة الفجر؛ إلى أعمالنا الزراعية، في الحقول المجرّحــة بسـكك المحاريـث، وإلــى المراعــي والكــروم المخصّبة بالعشب والدوالي. وكيف كان لغط الأصوات، يعلـو فـي كـل الاتجاهـات. ويخالطهـا فـي الطريـق قـوقى الدجاج، وصياح الديكة. وترصدنا بقية من نجوم السماء، مازالت تتطلّع إلى الأرض.

ـــ أيـن ذاهـب، يـا مزيـد السـالم، بحمـارك، ذي الـذيل الأزعر؟

ردَّ مزيد السالم. بعد أن حدّق، من تحت راحة كفه:

ــ إلى كرمي، في موقع الشعاف، يا داود.

حرام تستحثّه هكذا. يا رجل، دعه يخرج برازه، على مهل....أف! أراك تشارك في ذبحه، وأنت تلكزه بخاصرتيه !

ــ ماذا تقول يا داود الـ.....؟

-ـ يا أخي. أهو حمار، أم حصان ابن العريان، في زمانه؟... بل هذا حمار، يا حمار.

وعاصفة من الضحك انفجرت من الاثنين.

ثم تأخّر داود قليلاً، ولاذ بحائط كرم. وقذف شريطاً من البول.

* * *

كذلك، يمرّ شابٌ فارع يحثّ سيره أكثر على رجليه، إذ لا رحل عنده، يحث سيره ليصل مبكرّاً إلى حقله. قبل موعد السرى، ويباشر في حصاد زرعه، الذي أنضجت سنابله شمس حزيران اللاهبة، فامتلأت بحبّ أصفر، كالذهب....

* * *

وأيضاً:

ــ أسرع يا (مهنا) بأبقارك، حتى لا يسبقوك إلى

المرعى، في أرض المرج.

ــ ولِمَ لا تهشْ، بعصاك الطويلة هذه، قطيع مواشيك إليها، يا هزاع؟ أم لا تصلح، إلا لكثرة الكلام الفارغ؟...

ــ سقْ أبقارك أمامك، يا مهنا. وإلا نلت مني عصاً.

ــ عصاك أقصر من شحمة أذنك.

ــ اخرسْ.... أنت....

ــ بل اخرسا، أنتما الاثنان. وكل منكما ينصرف إلى حيواناته. /فاعل خير صاح بهما، فكفّا الشر.

*   *   *

وتذكرت أن فاعل الخير ذاك. كان ـ أسعد الجندلي ـ كنت راكباً على فرسي ــ كديشي المهلوب. وقد جار عليه الدهر الخؤون. بل جار عليّ وعليه معاً. فقمتُ (بتكديشه)، من أجل العمل، في دراس القشّ على البيدر. أكدنُ رقبته ذات المعرفية الطويلة الشقراء، بالكدانة. ليجرّ خلفهُ النورج الخشبي على كدّاس الدريس. بعد أن كان حصاناً أصيلاً أربطهُ أمام معلفه لحين الطلب.

أوا...ه! تراني قد أشرقتْ، في وجداني تلك الأغاني

البهيجـة الخاصــة بالـدراس. التــي كانـت تتعـالى، مـن البيادر، طوال النهار. ويعيد ترجيعها عصف الريح، في الروابي والقيعان المحيطة بالقرية:

«مـا قلـت لـك، يـا هوعـة   يـا بـو قمـيص رفوعـه»

«مـا قلـت لـك، يـا زينـة   يـام قميـص ردينـة»

وأشـرقت، أيضـاً، تلـك الصـور، التـي تعكـس تعـاون الفلاحين وتآزرهم في عمل البيادر:

ــ أبا حسين هلال، أين مذراتك؟ رجاءً. افزع لي، في هذه (العصرية).

ــ ابشر، أبا محمود. لقد جاءك من كفاك!

ــ أبا نوّاف عرمتي كبيرة.

لا تخف، أبا قاسم. أنا، لها، وأنت بجانبي

....

ونغي كنغي القطا، الذي كان سربه، قبل قليل قد حوّم في فضاء عرمان. يجري حوارات ونداءات، بين أصحاب البيادر المتجاورين.

وحـين يعتلـي الرجـال الأشـداء، ذوو الزنـود المتينـة، ظهور

الأكوام المعرّمة بالدريس. تتعالى مذاريهم مرفوعة، فوق الرؤوس، لتفرز الريحُ الحبَّ عن التبن. مع صدح أغانيهم الخاصّة بالتذرية:

« هبّـــي، هبّـــي يـــا ريـــاحي وشـــوّحــــي يـــا مذارينـــــا»

«خلّـــي التـــبن يطيـــر يطيـــر ويهبهـــب علـــى علالينـــا»

«والصـــبّة تصفـــو بكّيـــر علـــــى بيـــدر موالينـــــا»

وهـــا هـــي ذي (صـــبب) قمـــح البيـــادر، تـــتلألأ، بتلالـهـــا الصغيرة، كموشور ألوان. يمور داخل عيني، كالذهب، من حبّ الحنطة الصافي، الشقراء النقية. كقلوب أولئك الفلاحين.

*   *   *

ثم أُراني أتناجى، وخيالي، وما يتراءى على شاشة نفسي، من صور ومشاهد تلك القطارات، من قوافل الجمال المحّملة بالقش المحصود، والمرزوم، بشبك مجدول، بحبال من أمراس القنّب. ورنين أجراس الجمل الأخير. يصدح بسحر وعذوبة. لينبىء الرجّاد، بأن قفله الطويل، ما زال مقطوراً، بجمله الأول، الذي يقوده، في سراه العاتم في الهزيع الأخير.

حين تتوهّج نجوم السحر، وتتراقص في مخمل السماء، مثل حبات قمح منثورة.

وأتذكر أن الرجّاد هذا كان رجلاً عتيداً. ينتقى من خيرة رجال القرية وشبّانها، ممن عرفوا بالقوّة ورباطة الجأش. فيندب نفسه لهذه المهمة الخطرة الصعبة....

وأراني أعود أتلجلج بنزف ذاكرتي الفائضة. فهناك، عن يساري ــ في قريتي عرمان ــ ساحة (المقيل). التي كانت تجتمع فيها حيوانات القرية، في كل صباح. من أجل سوقها إلى المراعي. يسوقها رعاة من فتيان القرية، إذ كان معظم هذه الحيوانات، من بقر (العجّال) ــ أي بقر البطّال، الذي لا عمل له بفلاحة الأرض وحراثتها ــ ومن البقر الحرون الذي أعفاه عناده من العمل في الأرض. والمواشي: أغنام، وعنوز....

أجل هأنذا أسمع،بأم أذني، هذا العتاب:

ــ لقد تأخرت،عن موعد (هشّ) القطيع، يا صالح العبد.

ــ أخذني نوم الصباح، عمي أسعد، بعد سهرة طويلة.

ــ لا تعدْ إلى مثلها. هَهْ...!

ــ على رأسي وعيني، عمي أسعد.

ــ نحن أهالي عرمان، كنّا نأتي بالرعيان، من أبناء

القرية المعدمين. ونحجم عن استخدام (الـبدو)، في هذه المهنــة،على الــرغم مــن مهــارتهم بهــا. نظــراً لمــا كــانوا يتّصـفون، بــه، مـن غـدر وسـوء ائتمــان؛ وكراهيــة، لبنــي الأعراف... ــ

استنشـقتُ كميــةً كبيـرةً مـن الهـواء. ثـم أخرجتهــا، مـن منخــري، علــى مهـل. مـددت عينــي، مـن جديـد نحـو تلـك المراعي الخصبة المتدّرجة، على السفوح المحيطة، بالقرية. وقـد انعكسـت عنهــا أنـوار خضـراء، بفعـل العشـب النــامي الغمير. فأعاد منظر العشب هذا إلى ذهني مشاهد تلك السوائم مـن الماشـية والأبقـار، وهــي ترتــع فيــه، وتقضـم حشائشـه الطرية الرخفة. ثم تُعيد هضمها، في قيلولتها، اجتراراً، لتكنز الخيرات لأصحابها. وقد أصبحت معلّفة مسمّنــة..........

بلى. لقد خفق قلبي، وامتلأت (جوانحي) بهجةً وفرحاً. وأنا أجول،ببصري، وبصيرتي، معاً. في تلك الأدواح، من أحراج الغابات، لأرتمي تحت أشجارها (كما كنت أفعل). فأنعم بفيء ظلالها، وعطر أنفاسها. بعد تعب مرير، بالعمل في الحقول، أو بمشاوير الصيد لقنص الطرائد من أرانب وغزلان وطيور الحجل، والمطواق. و........

آ...ه! يــا لحيــاتي تلــك، التــي كنـت أحياهــا فــي قريتــي العزيزة هذه! كم كانت هنيئةً ماتعةً.

ابتسمت، وحدي، وأنا أصغي إلى الثغاء والخوار. نعم لقد حان وقت الغروب. وقت عودة قطعان المواشي والأبقار. حتماً ستطفىء هذه الحيوانات عطشها بعد الرعي. فحطّ نظرك هناك، يا أبا حمّاد. وهأنتذا تقف على حافة البركة. التي كانت ترد إليها. بركة عرمان المعروفة، التي تعتبر من الآثار الخالدة فيها. والتي كانت تملؤها شماريخ الجبال وذراها، بسيول ثلوجها المكّدسة. حين تنفلق عنها، كعذارى غافيات. وقد نزعن عنهن لحاف النوم الأبيض الناعم. بعد أن لاح نور الشمس يدغدغ خدرهن بشعاعه الباهر.

نعم. أُراني أتملّى هذه البركة، وهي تمتلىء بسيول الذوبان. تصبّ هذه أمواهها بقنوات ذات تصاميمَ بارعةٍ، في خبرة الهندسة المائية القديمة، وبالمناسبة (كم تغنّى بها) من الشعراء المحليين. كموردٍ وحيد للحيوانات. ولا سيما منها الخيول الأصيلة، بعد العودة من معركة، خاضها الفرسان على ظهورها:

«موردها عرمان وعجال البرك

خيّالها سبع المجنزر فوقها»

* * *

ثم أ جدني أ ستعيد ر جع ذاك الحوار النسائي ا لودود، بمسامع خيالي، حول ضفاف البركة. فتزداد به نفسي عذوبةً وانشراحاً:

ــ صباح الخير، وردة.

ــ أهلاً، سلمى.

ــ كيف حالك؟

ــ الحمد لله تعالى.

ــ ما هذه السروة المبكّرة، إلى البركة؟

-ـ لدينا جبلة طين، لتلييس جدران الغرف. ودعونا الجارات للمؤازرة.

*   *   *

أجل. هكذا كان ديدن أهل عرمان أيام زمان؛ وهكذا كانت حياتهم المعيشية، وأما اليوم، حتماً، قد تبدّلت،وتحسّنت كثيراً، بعد أن فارقتُها، قرابة ثلاثة أرباع القرن. لذا غضضت الطرف عمّا شاهدته، من المظاهر الجديدة، لأبقى وثيقاً بشعور الانتماء والاعتزاز بـ (عرماني) القديمة. تضوع في داخل كينونتي زهرة فوّاحة. نبتت منذ

الأزل، في هذا السفح المنحدر، من جبل بني الأعراف، الواقع في الزاوية الجنوبية الشرقية منه.

فانعمْ. يا أبا حمّاد، بالمناظر الجميلة. و عبّ من الطبيعة الخلابة، كما نعمتَ وعببتَ، وأنت تتجوّل في مروجها سابقاً، يا أسعد الجندلي، من النسيم العليل، والهواء النقي. والمناخ العذب. والخضرة البديعة. وهي تمور، في عينيك ظلالاً وتلاوين، في كل ما تحفّ به، من رياض وأعناب وأدواح...

نعم ألا تستحق عرمان، أن تفتدى بالمهج والأرواح؟ عندما يطالها ضيم من غاشم أجنبي.

*   *   *

بقيت واقفاً كالمصلوب. طبعاً، مازلت وحدي. لا أبالي بمن ينظر إليّ بفضول،من المارّة. كما كان ينظر أهل حارتي في مدينتي. عدت، وجلستُ على حجر بازلتي، قد ظهرت عليه طحالب الزمن، كان قد سقط من جدار قديم. وظللت مشحوناً ببحران ذاكرتي وضغوطي. أصابتني حكّة خفيفة تحت ثيابي. (هرشتُ) جلدي دون أن أدري. إذ استرعى انتباهي رف آخر من القطا. ظهر فوق منحنيات السفح المقابل. افترّت شفتاي بالابتسام. واستبشرتُ خيراً، القطا

عندنا قديماً، رمز للخصب والرخاء. فالعام القادم. سوف يكون عاماً ماطراً، وتهطل فيه الثلوج أيضاً. ليجني أهل عرمان غلالاً وفيرة، من أراضيهم....

أين سرحتَ، أبا حمّاد؟ أراكَ صرت تشرد. عُدْ ولملم ذاتَكَ. انحشرْ من جديد كائناً آدمياً. وهوّمْ سابحاً مجنّحاً، في فضاءات عرمان (أسعد) ك؛ وقد استحالتْ لوناً عسجدياً، في أصباحها المسكرة بالشذا والندى. وسِحْ في فلوات ماضيها. وجُلْ في كل ما تحمله، من مخازن المخيّلة الغالية الثمينة. في الأزقة والمنعطفات. وتقرَّ المفارق، ونواصي الطرقات.... هَهْ! أين أجدك تقف، في هذه اللحظة؟

يا الله! هذا بيت أسعد الجندلي، بالذات، كأنكَ متعمدٌ زيارته. وهذه هي بوّابته الخشبية، ذات الخوخة الواسعة. نعم. كنت قد دفعت للنجار الذي صنعها خمس ليرات ذهبية، من نوع (عثمللي)... وهذه هي المضافة، مضافتي المنفردة، عن الغرف الثلاث، التي كانت تعجّ أنساً، بأم العيال، والأولاد، والأحفاد. وهذ......

وأجدني. أتحرّك، شخصياً. درتُ حول بيوت الجيران، وتابعت سيري المتعثر، حتى وصلت، إلى الساحة العامة. ساحة (المجلس ـ الجامع). وهنا غرقتُ بالدفء أكثر فأكثر،

وتدفّقتْ عليّ العواطف والمشاعر الحميمة، وتعبأتني متدافعةً، من وحي الأمكنة العابقة بالماضي النبيل. والتاريخ المجيد، الأمكنة التي كنـّا نعيش فيها هاتيك الحياة الجماعية الصافية. نعيشها بكل ما كانت تتضمّنه، من تآخٍ، وطيب نيّةٍ، وحسن طويـّة. كما تقضي بذلك وحدتنا الريفيّة. ومبادىء عقيدة توحيدنا الصادقة. التي تتكرّر، دوماً على ألسنة (المشايخ الأجلاّء). لتتعزّز، بيننا، المودة وروح الإخاء والإيثار. وكم طنّ، في أذني السابقتين: «عرمان بيت واحد».

«أهل عرمان عائلة واحدة. تجمعهم طبخة (كشك). وطاس من شراب (اللقسماوية)!».

والآن. ألم يحنْ بعد،لأن أبيت وآكل عند أحدهم؟ تابعتُ أخطو خطواتي الملتكّة المتلعثمة، برجلي المعوجتين. وأنا أحشو، في داخل جلدي، جسمي شبه المشلول هذا. إيبْيْهْ....! ـ فطنتُ ـ يا لجسمي ذاك الذي كنت أدرج به، بخطواتٍ شمّاء، تفتّت الحصى! كم كنت، فيه، رجلاً عنيداً، وعبلاً صلباً صلداً. قاسياً في ممارسة العمل، بالحقول والكروم. من أجل تأمين الرزق الحلال، للعيال، من جهة، وفي مقارعة الأعداء، من بدوٍ، وجنود أتراك. من جهة ثانية. وكان إذا ما ذكر اسم (أسعد الجندلي) بين (الربع)، يذكر ذو الوجه

الأخضر،المستنفر دوماً (للفزعة)، ولخوض المعارك. وكنتُ والحمد لله تعالى. أخرج منها دوماً سالماً، بعونه تعالى. حين أغير على فرسي (كحيلان) المحجّل، الأحنف الساقين، ذي الخطم الأبيض. وأنا ألحف كفله بالسوط. هذا الـ(كحيلان) الذي عاد وجار عليه وعليّ الزمان،فأضطررت (لتكديشه) ـ كما سبق ـ وتبديل مخلاة الشعير بمعلف التبن.

أجل. كم كنت أشعر بالخيلاء، وأنا فوق صهوته. فأتصرّف كفارس ذاق نشوة البراعة، وزهو التفوّق. حتى اكتسب هيبة، واحتراماً، لدى جميع أهل قريته.

على كل حال مالك وذاك، يا (أسعد ـ أبا حمّاد). تابع الآن خطاك الملتوية البطيئة بخالص شعورك، فأنتَ لستَ بحاجة إلى مرشد أو دليل في قريتك، التي زرتها مصادفة. فكل زقاق، أو منعطف، وكل بيت أو حجر، موجود في ذهنك ومعرفتك.

تقدمتُ... ثم توقّفتُ، بجانب دار كبيرة،بَدَأَ رأسي يطن. وصار ثقيلاً، إنها لم تتبدّل، ما زالت كما هي، في جغرافية ذاكرتي. مايزتُ آثارها الماثلة أمامي ـ غرفها وأحواشها ـ وكأنني دخلت،بها، من باب التاريخ الأكبر.

أجل. ما زال القديم على قدمه. صعّدتُ نظري، نحو

العلية ـ المضافة. غمر قلبي الفرح. عبرتُ البوابة، من خوختهـا. ضـجّت أذنـا خيـالي، بترجيـع ثغـاء المواشـي والطليـان. وهـاهي ذي قطعـان الأبقـار تخـور أيضـاً. وهـي تتقاطر راجعة، من مراعيها. صور شتّى تترى وتتتارى لدار فلاح انموذجي في عرمان. يمتهن زراعة الحبوب، إلى جانـب تربيـة المواشـي والأبقـار. وفـق القاعـدة الجوهريـة المعروفة عندنا:

«فلاح مكفي سلطان مخفي». ثم.كأنه شبّ قبالتي،في الحال، هذا الفلاح المخفي:

ــ تفضّل، يا أبا أكرم. يا أسعد الجندلي.

ــ أوا....ه ! أهذا أنتَ، يا أبا ميثاء؟

ــ هِيء...هِيء... / ضحك، وسار أمامي.

يا الله....! أأنا في غفلة، أم في صحوة؟ في حلم،أم في يقظة؟

نعـم، لا مجـال للتسـاؤل. سـمعته يقـول للشـركاء مـن المـرابعين، كعادتـه: علـيكم باسـتنباط خيـرات الأرض. لتحصـيل القـوت، وإطعـام مـا ينـوف عـن عشـرين نفسـاً، إضافة، إلى نفقات المضافة، وما يقدم للضيفان فيها، من ولائم الكرم المعهودة.

حقيقة. كانت دار أبي ميثاء حسين الأطرش هذه. داراً

كبيـرة تشـكل بشـؤونها الزراعيـة. وتقاليـدها الإداريـة الفلاحية، كدائرة رسمية، من دوائر الاقتصاد الريفي.

تعبأني الحنين أكثر. حين ولجت باب المضافة. ورأيتُ بعينـي الشـحميتين. لا بعينـي ذهنـي هـذه المـرة. رأيـت أشـياء كثيـرة: دورق المــاء. دلال القهـوة المـرّة، مصـفوفة، بجانـب (المهباج) ــ الجرن ـ المصنوع، من خشب البطم، ذي الرنين النحاسي، والذي يكثر شجره في جبلنا. تذكرتُ كم كان يتعالى صـادحاً (صـوت هـذا المهبـاج)، عنـد الصـباح، حـين تنحسـر السماء عن حمرةٍ قانيةٍ بلون النجيع. وكان يهبّ الشيخ أبو ميثاء حسين الأطرش، من رقاده، ككل أصحاب المضافات، في عرمان، ليسحق (بمهباجه) حب البن المحمّص. ويصنع طبخته اليومية، من القهوة المرّة. كانت أصوات (المهابيج) هذه. يتردّد عزف صداها العذب، في جنبات عرمان. فيترنّم بجـرس (نقرشـتها) الغـادون فـي سـراهم، مـع شقشـقة الفجـر، وتغريد الطيور. التي استفاقت توّاً من أوكارها. لتنساب هذه الأنغام، مع الأنسام العليلة الندية. ناعمةً، مشاركة مواكب اليوم الجديد في تسبيح الخالق الكريم. ويعلن أن المضافة جاهزة، منـذ الآن، بقهوتهـا. لاسـتقبال الـزوّار والضـيوف. وأُرانــي أستعيد، بذاكرتي، في هذا الصدد، ذاك البيت الشعري، من قصيدة

محلية يفتخر الشاعر بغدوته في طبخ قهوته:

«يـــا مـــرحباً بضـــيوفنا والمـوالـــي

مهباجنـــا يصـــدح، مـــع الصـــبح بكّيـــر»

ثم أجدني أتذكّر أيضاً أكثر من بيت شعري محلي، في قهوتنا. رمز كرمنا في جبلنا:

«يـا مــاحلا الفنجــان مــع معشــرٍ زيــن

يشـــفيك لـــو أنّـــك صـــويب تعـــاني»

«ومعـــزّب الـــرحمن يســـكب فنـــاجين

ويبشّـــر الجيـــران، ضـــيفاً لفـــاني»

اقشعرّ بدني حقيقة، وتلمستُ جنوبي. ياللحسرة! أين ذاك الماضي المجيد؟ وأين ذانك العزّ والكرم؟

عصف رأسي. أأبقى عائشاً في خضمّ العواطف السامية؟ سابحاً سائحاً مع طيب الماضي وضوع أعباقه، أم ماذا...؟ ألم تشعر بالجوع يا أبا حمّاد؟ فها أنت في وقت (تركيب الطبيخ). بل فات موعده قليلاً. نعم فإن موعد (تركيب الطبيخ) هذا، كان موعداً أساسياً، في مفاصل اليوم الوقتية لدى أهل عرمان. يقولون: جاء فلان في (تركيب

الطبيخ). ذهب فلان في (تركيب الطبيخ). وطبعاً، كان يرافقه روائع من لوحات فنية. رسمت بجدائل غمامات الدخان المخملية الزرقاء. تنداح نحو الشرق، من القرية متلولبة. لتندمج فيما بعد مع زرقة الكون الكبرى. حين تتضافر بعقصها، متلاصقةً مسفّة، لتلامس الآكام الشرقية، بفعل رياح الأصيل.

فكم تنعّمتْ عيناك يا أسعد الجندلي، بتلك المشاهد الجميلة، من الزرقة الرمادية، التي كانت تلتحم بلوحة كيوان التكوين الرائعة المطلقة، التي تشكلها (بانوراما) الكون، في غروب الشمس.

بلى. كان، أيضاً، يرافق هذا الموعد الرئيس، في القرية ـ موعد تركيب الطبيخ ـ قضايا وأحداث محلية. فها أُراني استعيد، بذاكرتي، حادثاً خطيراً. وقع، في القرية. لأن راعي الحيوانات. أتى بقطيعه، قبل موعد (تركيب الطبيخ)؛ فاقتصّ منه أحد الفلاحين، من أصحاب المواشي، بعد أن حاججه، بهذا التهاون:

ـــ خذها، من عباس الغانم، يا راعي الكلب، تأتي بالقطيع، قبل موعد تركيب الطبيخ، فالحيوانات لم تشبع، في مراعيها، بعد / و(طاخ.....).

وحجر بحجم قبضة اليد، رنّ به رأس راعي القرية حميد الجاري. فثعب الدم منه، كفوّارة، على الأرض. واحتشد الناس من الأهالي. وحدثت (هوشة) مهولة. وتدخل مشايخ الدين الأجلاّء وكفّوا المتناوشين بالعصي والهراوات والحجارة بالمقلاع...

أُراني، ما زلت، في مخايل (تركيب الطبيخ). ونسيت العشاء الذي دلفت نحو هذه المضافة،من أجله. بل نسيت أن أقول: إن أهمية ذلك الموعد لدى بني الأعراف. جاءت من أهمية وجبة العشاء نفسها، التي ركّب الطبيخ لها. فقد كانت هذه الوجبة هي الوجبة الرئيسة، في تناول الطعام اليومي. ودرج عليها بنو الأعراف، كابراً عن كابر، بتوصية من المعلم الأول (ارسطو طاليس). الذي يقدّسونه، كنبي مرسل. وكان معظم طعام العشاء يقدّم من طبيخ (المجدرة)؛ طبعاً!

عبرت البوابة. علّ ورثة الدار يقدمون لي هذه الوجبة المنسية. أحقاً، كنت جائعاً، أم شبعتُ بما بشمتْ به مخيّلتي، وأنا أسترجع مشاهد قريتي الأولى، وأتملاّها بالكامل؟ أتملاّها بأحاسيسي، وجوارحي، وانفعالات مشاعري. وبكل ما أفعمتْ به نفسي، من سعادة. ما بعدها سعادة، بلغت الذروة في النشوة والانبساط ! فحمداً لله رب

العــالمين. لقــد كافــأني، كــأبي حمّــاد. عــن صــدمتي، بحياتي، في قميصي الراهن هذا. كافأني، بالعيش مرة ثانية، فــي ســيرة حيــاة ((أســعد)). الســابق. فتفتّقــي بهــا أكثــر، يــا ذاكرتي الممتدة عبر الزمن. واسترجعي مفردات تفاصيلها ودقائقها. ولتظل تزخّ مراياها، في داخلي صوراً ومشاهد، وأحداثاً. كنت قد عشتها، في هذه القرية.

عدتُ ووقفت ملتفتاً نحو الغرب، كان شفق الغروب، قد اشتدّ خضابه، ليمتزج ببنفسج غسق المساء. فهيّا ادخل الدار يا أبا حمّاد، وتعشَّ. ثم نمْ. ولتنم عرمان، في ذهنك رافلة بثياب النقاء والفخار. ولتلد معها، من جديد، في صباح يوم الغد، مع نسائم هوائها. وأنامل طراوة أندائها.

صحيح أن الإنسان يولد مرتين. ويحيا مرتين. ويموت مرتين. كما قال السيد المسيح، عليه السلام!

*   *   *

الفصل الخامس

نعم. تبلّج فجر اليوم الثاني. وبقيت، في مضافة هذه الدار، كضيفٍ. كما ظللتُ عائشاً، مع (الربع) ـ الأهل ـ في الوقت نفسه. كانت ثمة غشاوة لزجة عالقة بعيني. وإن يكن. فلن أُبالي. فقد خايلتهم جميعاً حاضرين، معي،هنا، في هذه المضافة، التي شكّل فيها الزمان والمكان وحدة تامة. أقبلتُ على (الربع)، من الأقارب، والأصحاب، والجيران. وسمعت صرير الباب. بل رأيت من يمسك بأكرته ويفتحه. من سلّم عليّ منهم؟ ويندفع الدم إلى قلبي أكثر، وأسمع ضرباته. هأنذا استقبلهم فرداً فرداً. وأخاطبهم بصوتي الملتاخ: «السلام عليكم، يا أهل ذا البيت يا أهلي. كيف حالكم»؟ ثم:

ــ «أهلاً بك، يا شيخ صالح النجمي. يا رجل مازلت حيّاً؟

أيــن أولادك الخمســة؟ هــل قتلــوا فــي المعــارك، أم سلموا؟».

ثم يطلُّ عليّ أحدهم، من ناحية أخرى. ويقول، بعد أن تهزّه نوبة سعال حادّة: «عمَّ صباحاً، يا أسعد الجندلي..... أف!.....أف! لقد شختَ كثيراً، يارجل، وتبدّلت معالمك».

_ «إيبيــهْ...! نعـم. هـذا أنــا (أسـعد الجنـدلي)، يـا حامـد السلوم. والله لن أنسى جيرتك الشريفة يا حامد».

«و.........».

أجل. كنت، في خيالي، كمعزّب. يستقبل ضيوفه. وأنا غارق في السعادة، إلى ما فوق قبة رأسي. يحقّ لي. فهؤلاء (الأكارم) من رجال قريتي البسطاء الطيبين، يحفون بي من كل جانب. وبخيالات رائعة بديعة أخذتْ تمطرني مشاعر البهجة والدهشة. وأغرق بها، حين يمورون قبالتي. نعم.نعم. ها هوذا صاحب هذه المضافة نفسه. بشخصه الماثل أمامي. يرحب بي: «مرحباً بك، يا أسعد الجندلي». أف! انتبهتُ، وانتبهتُ. أنا أبو حمّاد. وركّزتُ نظري عليه. إنه صاحبي الشيخ الجليل المهيب. أبو ميثاء حسين الأطرش. الذي كانت تربطني به صداقة حميمة. وتعتبر داره دار عرمان الأولى.

حين لطمته عيناي، في الباب المشرع، دوماً، من جهة

الشرق. تذكرته كيف كان يقف، و هو يرحب بضيوفه القادمين من القرى والبوادي.

أوا.....ه! لقد أشرق، في ذهني، تماماً. حين استقبلني، في ذاك اليوم من تلك السنة، التي غبرتْ منذ تسعين حولاً. كما استقبل غيري من أهالي عرمان. بدعوة كريمة منه. لحضور وليمة عرس ابنته ميثاء. البنت التي عاشتْ مدلّلةً، في بيت أبيها. كوحيدة. والتي ستزفّ عروساً. نعم تذكرتُ جيّداً أنه تقرّر زفافها، إلى أبن عمها الشاب الناهض، محمد الأطرش. ابن الشيخ سلمان الأطرش، شيخ بلدة صلخد. قصبة (المقرن القبلي)، التي تبعد جنوباً، عن قرية عرمان مسافة ساعة سير؛ على الأقدام. وذلك بعد خطبة طال جدالها وعسر، لولا أن تدخلّ (الغانمون) بحلّها:

- يا أبا أكرم أسعد. لا أستطيع مفارقة ابنتي الوحيدة. وقلبي لا يحتمل غربتها.

- يا شيخ حسين، مسافة ساعة زمان مشياً على الأقدام تحسبها غربة!

- يعني..... / قاطعته:

- طيّب، وخاطر مشايخ أهل الدين؟

سعل في كفه. ثم شرب من طاس الماء بجانبه:

- خاطرهم عندي مقبول، على الرأس والعين، في كل شيء، إلا في زيجة الغربة هذه.

- يا شيخ حسين، ابنتك ستكون زوجة لابن شيخ قصبة المنطقة. بل لشيخ صلخد، بعد موت أبيه سلمان. وستكون المرأة الأولى فيها.....

وقف قبالي شاخصاً. ثم عدّل طيّات بحر سرواله وقال:

- ها.......ه !

- من قال (ها.......ه) سمع.

* * *

وتتوهّج لدي الذاكرة أكثر، في وقدة اضطرامها. وتتفتّق. فأقف على كل ما جرى، من الوقائع الماضية، في هذه المضافة. وأنبش ما توارى منها ودفن، في قيعان روحي هذه، المتصلة الممتدّة بي، من كتيف إلى كتيف آخر. إذن لأحثّ طاقة استشعاري، في التفتيش، بنور مصباحها، في الزوايا اللائذة، المعتمة، في نفسي.

في المنحنيات الجوّانية منها. لتكرّ بكرة شريطها، على شاشة دماغي. كبكرةٍ لشريط سينمائي. تضخّ بصورها. و ها قد أقبلت الأطياف العزيزة الغالية، على قلبي. وأحدقت بي، من كل جانب.

سلّطتُ بؤرة ذهني، على طيف بهيّ منها، طيف ميثاء نفسها، هذه التي طار صيت حسنها وجمالها. كانت نقية بيضاء، كحصاة فضة، وهي تشعّ بين المدعوات، من البنات والنساء. لقد التأم شمل موكب العرس حقيقة. فظهرت الفتيات، بتنانيرهن المزهرة كأزاهير الجبل حين يطرق أرضه فصل الربيع. ومارت صفوفهن، بعيون خيالي. يرفلن، بثيابهن الملونة تلك، كشرشف صنعه شهر نيسان ذاته، وهن يقدّمن رقصة محلية إيقاعية ساحرة. ودبكة شائعة أخرى. خاصة بالشبان والشابات. تسمّى (حبل مودع). وكانت لا تقلّ براعة عن الأولى. ثم، ها أراني أستمع، بعذوبة بالغة، لأنغام ألحان رخية، من عازف الربابة، وما أطلقته الحناجر، من أصوات الأغاني العذاب:

«على دلعونا على دلعونا

بي بي الغربة الوطن حنونة»

ولون آخر:

«حيّــــــــت الأســمـــــــر حيّــــــــت

مـــــا عرفـــــت كيـــــف ابتليـــــــت»

«ضـــــحكة، وغمـــــزة، وتطليعـــــــة

بعــــــــت الــــــــدنيا واشتريـــــــــت».

وقصيدة أيضاً:

«يـــام التنـــورة الصـــفرة صـــباغ الليمـــون

حـــاجي غــنج ودلاعـــة، وتـــذبيل عيـــون»

«حاجـــي عنـــج و دلاعـــة يـــام الســـاعة

العابـــد ســـاح بجمالـــك ضيّـــع هالكـــون»

وأغانٍ بديعة أخرى. تناوبت على ألسنة المشاركين في هذه الحفلة.

*   *   *

في حقيقة الأمر. كان عرساً حافلاً، بكل مظاهر البهجة. وبكل ما يليق أن يقدّم، في إحياء أفراح يوم زفافٍ، لابنة كريمة، من بيت كريم؛ وما يرافقها من طقوس

الأعراس، ومن الفنون الشعبية.

وأستذكر أن كل هذه المباهج، قد اشتدّت وتيرتها أكثر فأكثر، بالمشاركة الجماعية. ولا سيّما منها «الدبكة الرّجالية». وهنا أجدني منخرطاً ــ أنا شخصياً ــ مع مجموعة من الرجال، مماثلين لسنّي، ككهل. ندقّ، بأقدامنا الأرض دقاً قويّاً. كأننا نريد أن نخرج، من باطنها الماء. ندقّها على إيقاع طبلة، وبمرافقة أغنية حماسية. تلهب الصدور حرارة و(شوشرة). نقوم بهذا الأداء العنيف ـ نحن الرجال القرّح المجرّبين ـ كأننا ما زلنا شبّاناً. نتدفق حيوية ونشاطاً. كنّا نتناخى بالدبكة. كما لو أننا نتناخى في (فزعة) لفكّ أسير من أسره:

ــ أسعد... هَهْ! دقْ.... دقْ....

ــ لعينيك، أبا قاسم.... جئتك ها...ه!

ــ هييْهْ يلاّ... ارزخ... أبا نواف.

ــ أنا عندك، أبا هزاع.... أيْوَهْ... اضرب. ارفع.. اركع...

بلى. قد أشرق، في بالي كيف كنت، قد قضيت زهرة عمري، بين هؤلاء الأتراب. وأنا قيدومهم، في أداء مثل هذه الدبكة القوية، في أعراس عرمان. كنت قد حافظت على

هـذا التفـوّق منـذ مراحـل فتـوّتي الأولـى. وأسـمع: «لا يكتمـل فـرح العـرس، إلا بحضـور أسـعد الجنـدلي ». و «عشت، يا أبا أكرم... ».

فالتهـب حماسـة. وبخاصّـة عنـدما أرى (أم العيـال) ترمقني عن كثب. فأغيم مجنّحاً مع إيقاع الرقص والعزف والغناء. كما يغيم السحر الحلال، في بيان الجمال. أترك نفسي منسابة، لأصبح في دنيا من الأحلام، غير دنيانا هذه.

وهأنذا. أجدني، الآن، أبتسم وحدي. وأنا لا بدٌّ في (مضيفي ـ المبيت)، لأهزأ من شخصي، بجسمه البالي هذا. العاجز عن المشي. ناهيك، عن تلك الحركات العجيبة من الدبكة!

عدتُ وشردتُ. أجل. يجب أن أغيب عن (راهنـي) المقيت، لأبتهج مع (راهني) البديع ذاك. وأنا أصيخ سمعي، لـ «تفضّلوا، يا غانمون، افلحوا».

نعم. كان قد نبهني هذا الصوت. لقد قدّم أبو ميثاء، الشيخ حسين وليمة فاخرة، بمناسبة ((فرح)) ابنته. فتحلّقنا ـ نحـن الحاضـرين ـــ حـول المناسـف العشـرة، المعرّمـة، كالعـادة، بالبرغـل واللحـم المضـمّخين بالسـمن وشـراب (المليحيـة). ورحـت أتحسّـس فمـي المزمـوم، فـي وجهـي العظمي، كصرّة ربطت بخيط. وكأنني أتحسّس فمي الأول. الذي فغرتُه ككهف.

وأنا أتناول كرات البرغل الصغيرة، وأودعها إياه. أجبلها بالسمن والمليحية. ثم أحدلها بأصابعي لأقذفها كالدحل، بطريقة فنية بارعة. فتستقرّ في داخل حلقي.

كنّا نتبارى في المهارة بهذه الطريقة من تناول وجبات (الكرمات). وكم كنّا نبتسم، عندما أحدنا يخطىء ولا تستقرّ كرته في داخل فمه. تأتي على شاربه مثلاً. أو على لحيته. أو ذقنه. كانت لنا آداب خاصة بالأكل نتّبعها. ونطبّقها بحزم. كنا لا نتكلّم في أثناء الطعام. ولا نستعمل سوى اليد اليمنى وحدها. نصنع بها كرات البرغل الصغيرة. ونقتطع اللحم، والخبز....

ثم هاهي ذي الضجة الكبرى قد هدرت، بصوت جماعي، من المدعوين: «كثّر الله خيركم، يا أبا ميثاء. يثمر لكم». أجل. لقد انتهى تناول الطعام من الوليمة. ويجب أن يدرج موكب العروس إلى بلدة عريسها ـ صلخد ـ

وهنا أجدني واقفاً، من جديد، أمام فرس العروس. التي كانت قد اعتلت صهوتها قبل قليل وقد زُيّنت بالمرشحة، والكوبان، والشراشيب وقلادة الغرائر التي تغرغر برقبتها كأجراس صغيرة. لتليق بالأنثى التي تمتطيها.

وأراني أمسك بعنان الفرس. أنظر إلى فتاة عرمان

ميثاء، وقد صمدت جذعها فوق فرسها. وغطت رأسها بالطرحة. ووجهها بمنديل أخضر شفاف. بَانَ هذا الوجه من خلالــه بــاهراً زاهــراً. تلامعــت، فيــه، عينــان واســعتان مفتوحتان. يُرى في أعماقهما صندوق الدنيا. كما شعّ الذهب علــى رأســها، ببريــق وهّــاج (للرباعيــات، والجهاديــات، واللاطاميــات). وقــد ترصّــع بــالطربوش الأحمــر. بعــد أن استقرّ عليه قرص مشنشل، من الفضّة.

رحتُ أنظر إليها، بأم عينيّ الدامعتين. كان الحقّ، مع والدها. كيف تغادر قريتنا هذه الصبيّة،التي لا مثيل لها؟ ألم يلقْ بها شاب من شبّان عرمان الشجعان؟ طرفتْ، هي، نحــوي بعطــف ومحبّــة، كصــديقٍ لوالــدها. ثــم همســتْ لــي «عمي، أسعد. اجمع (نقوطي)..». وأخذتُ بدوري، أجمع لها (النقوط) ـ أي ما يهدى لها من نقود ـ وأنا أهاهي وأشوبش بأعلى صوتي:

ــ شوباش، لمنصور الغاوي. ومحبّة لرأس والده.

ــ عمي أسعد. هذا متليك.

ــ شوباش لفوزية الهادي. ومحبّة لأخيها جدعان.

ــ عمي أسعد. هذه مصريّة

خلف الله عليك، يا فرحان الشبلي. ومحبّة لأقربائك جميعاً.

ــ عمي، أبا أكرم. هذا قرش.

ــ أف! تنقّط بقرش، يا فؤاد العبد. هذا مبلغ كبير.

وكان هذا شاباً حدثاً. لم ينبت شعر عذاريه بعد. أشاح بوجهه كأنه انزعج:

ــ العروس تستأهل، عمي أسعد.

ثم ارتفع صوتي، من جديد:

ــ شوباش لزينة الحمود. ومحبّة لها ولأولادها.

وكانت هذه الامرأة أرملة لأحد الشيوخ، وحولاء. رأيت ميثاء وهي تبتسم لها من النقاب الشفيف. ثم تتالى، عليّ غيرها....

*   *   *

ظللت ملتصقاً بمباهج سرحتي الحميمة هذه. وأنا أجوس بها براري نفسي المنفتحة على حياتي المزدوجة؛ عفواً. بل حياتي الأولى، في هذه القرية العزيزة. وأنا أتابع موكب عروسها الغراء. وهاهي ذي ميثاء نفسها، قد شُيّعْتْ، من

أهل قريتها، بكل مظاهر الفرح، ومراسم الاحترام اللائقة بفتاتهم الغالية. ثم أفجأ، بأصوات الزغاريد، والأغاني، حين تعالت صادحة. خلف موكب العروس، على إيقاع زمر(المجوز). ونقر الدفوف والمزاهر:

«يخلـــف علـــيكم، كثـــر الله خيـــركم

مـــا عجبنـــي، مـــن المناصـــب، غيـــركم»

أغنية تقليدية تتردّد عند خروج العروس، من دار أبيها. كانت النساء في مقدمة الموكب. وكان الشبان في الخلف. والعروس في الوسط. وقد نافتْ على الجميع من فوق فرسها. وكان المشهد للناظر من علٍ. مثل رياض نيسان تموج حيّةً على الأرض. والصبايا يدرجن، بتنانيرهن الزهرية، والوردية.

بعد قليل. انطلق صوت جماعي كقصف الرعد، من وراء الموكب:

«هيْيّـــه يللـــي راكبـــين ع الســـلايل

فـــوق ضـــمرّ يـــم صـــلخد نـــاحرين»

ثم درج الموكب. وأنا ما زلت تحت مؤثر مخيّلة لعوب. ظلت تعبث بي، بل تتصرّف كما تشاء. خاضع لها. وأتفجّر بنفسي شظايا، لألتحم بكل تفاصيل الحياة التي عشتُ، في

هذه القرية، التي حظيت بها. وردّت لهفتي في أخريات عمري......

في نقطة الحدود الإدارية الفاصلة ما بين خراجي عرمان وصلخد. توقّف الموكب. ثمة جمهور كبير من أهالي صلخد كان ينتظر وصول العروس. ولكن، بالمقابل، ثمة صوت زأر عالياً:

ــ «يا أهل صلخد. وإن كنت جبلي بسيط، رجاء، اسمحوا لي أن أقول لكم: هذه هي العمدة ـ العضادة ـ».

صاح، من جهته فهد السلامة:

ــ «ماذا تريد بها،يا أنت. يا نايف، أيها الأحمق»!

ــ «أريد يا عمي فهد أن يتقرّر دفع ثمن ((الخلعة)) ـ أي العباءة ـ»

فانبرى شاب من صلخد. كان حنطي اللون مكتنز العضل، مربوع القامة. تقدّم، وقد سطعت، في وجهه، وجنتان ورديتان، فكّر أن يتعامل بها كما يتعامل طفل بلعبته. نفخ في راحة كفه اليمنى. ثم نترها ليرفعها إلى ما فوق رأسه. لكنها لم تعلُ أذنه. رماها على الأرض أمامه. وقد اعتصره الألم. ثم صاح شاب آخر، من صلخد. كان

يرتدي بذلة قميئة. تصلح فزاعة للطيور:

ــ «دعها لي، يا أحمد». وتقدّم من العمدة. ورفعها. وبعد أن حاذتْ هامته رماها. وقال بغضب: «هذه معجزة، وليست عمدةً». وراحت حمرة الخجل تكسو وجهه. حتماً، سيجعل أهل بلدته منه أضحوكةً. ويسخرون منه دون رأفة...

ثم اختلط الحابل بالنابل، ما بين أهل صلخد، وأهل عرمان. إلى أن انفرد، من بين الأصوات، صوت نايف الأسعد نفسه؛ كان هذا دوماً منبسطاً ولا يفارق المرح مزاجه:

ــ «بل هذه عمدة. ولا تحتاج إلى ثور حراثة...» / قوطع من صوت مجهول:

ــ «أرنا براعتك». كانت نبرة الصوت لا تخلو من التعالي والغطرسة.

ابتسم الشاب العرماني نايف الأسعد. باعد ما بين رجليه وانحنى فوق العمدة. رازها بيده اليمنى أولاً، وهو يبسمل. ثم رفعها دفعة واحدة إلى ما فوق رأسه. بانتْ مثل راية حجرية، وهي تهتزّ في العالي. صفق له الجميع، من أهالي عرمان وصلخد معاً. قال رجل عتيق مجرّب من صلخد؛ لم يحضرني اسمه:

ــ «علينا فدية (خلعتكم)، يا أهل عرمان. وهذا حقٌّ لكم».

عندئذ سلّمته مقود فرس العروس. وتابع الموكب سيره جنوباً. وعدنا إلى قريتنا. ونحن نكفكف دموعنا حرقةً وأسفاً، على فتاتنا المصون، التي يضرب المثل بصيتها حسناً وعفةً وأخلاقاً....

وهأنذا، بدوري، أتلّمس، الآن، عيني ذواتي الجفون المرط. وقد تبلّلتا بشيء من الدموع. ثم أراني أسمع:

ــ «لا تكونوا، مثل النساء البكّاءات، يا رجال عرمان. ادعوا لها بالتوفيق والسعادة مع عريسها، ابن عمها...».

ــــ «صدقت، يا أبا محمود. الله تعالى يبارك في زواجها».

وفي أثناء هذه اللحظات الحاسمة. كانت العروس ميثاء، من جهتها، تبكي بكاءً مرّاً، بصمت. وهي فوق ظهر فرسها. ورأيت دموعها تتقاطر غزيرة، على تلَّتي خديها الورديتين. وقد أضرّتْ بالإثمد الذي اكتحلت به. سال وشكلّ دائرتين سوداوين حول عينيها، ثم رأيتها تجول بتينك العينين النديتين. على أهل قريتها، من خلال منديلها الشفيف. وترمقهم بحرارة، وكأنها تودعهم.

حين عدنا إلى عرمان. كان ثمة همس. دار بين الصبايا.

من أخدان ميثاء. سمعتُ بعضاً منه:

ــ إيبْيْهْ...! ما هذا (النصيب)؟ / قالت غدفاء البهلول.

وكانت صبيةً تيّاهةً، بمنظرها وزينتها:

ردّتْ عليها صالحة النجم:

ــ يا غدفاء. يقولون عريسها شاب. ولا كل الشبّان، في بني الأعراف!

ــ ابن بيت؟

ــ وابن شيخ، يا هبلاء. يملك والده سلمان داراً كبيرة، ذات أطيان، ومرابعين، وفدادين أرض، ومواشٍ، وخيرات كثيرة كثيرة...

ــ ميثاء. تستاهل هذه «العيشة» الرخيّة.

ــ وأنا. لا أستاهل، يا شيخة، ولكن الحظ من الله تعالى.

ــ أنت غيور، يا هدية...

ــ بل أنا (بختي) عاثر،يا أخيّتي... إيبْيْهْ...! متى يأتي ابن الحلال وينقذني من زوجة الأب؟

ــ صبراً. لا تكوني مستعجلة، يا غشيمة.

* * *

كنت قد سمعت، قبل زواج ميثاء، أن هذا الشاب محمد سلمان الأطرش، ابن شيخ صلخد، قد مات والده وتقلدّ مشيخة صلخد هو. ثم أصبح، بعد قليل، أرمل. فقد توفيت زوجته (ميّاسة السعدي)؛ إثر مرض عضال خبيث. أعجز صناع العقاقير، وأطباء الأعشاب. فأودى بصاحبته. وخلّفت وراءها طفلين هما (نسيب وجاد الله). فقام عدد من أقربائه بالسعي لزواجه. والبحث له عن(ابنة حلال)، بل تكون صبية ذات شامة بنيّة، تصلح لإنجاب الأولاد.

وهكذا كانت خطبة ميثاء. ثم زواجه منها. وطبعاً كما تأجّجت نار الغيرة والحسد، في نفوس صويحباتها بقريتها عرمان، بهذا (النصيب) الباذخ. أخذت هذه النار، من جديد، تتأجج في نفوس نساء صلخد تجاهها. وكم تساءلن، كيف تصبح فتاة غرة. لا تتجاوز العشرين، بقليل، المرأة الأولى في صلخد؟ ولم يقتنعن بما أجازته أعراف مجتمعهن بأن زوجة الشيخ هي «الشيخة» بينهن:

ـــ أنتِ ترضين، بهذه (البنية)، أن تعبر الأبواب أمامك، يا ست (وديعة)؟

توقفت السائلة لتأخذ نفساً، ثم:

ـ ما زالت الغشاوة على عينيها!

ـ ـ أ هذا يجوز أن تقود نا، في الأ فراح والأ تراح. في الأعراس والمآتم، فتاة جاهلة. عمرها لا يتجاوز عمر ابنتي فهدة، التي ما زال شعر رأسها يلتئم خلف ظهرها عقصة واحدة. وتنورتها ذات كشكش!

ــ يعني لحسة اللبن على الوجه. تجعل صاحبته ملكة؟

و..............................

واعتراضــات أخــرى، فــي الخفــاء. كمــا هــي فــي العلــن. ولكن، على الرغم من كل هذا. (الحسد) فقد صمدت ميثاء في (منصبها) النسائي، كشيخة. بحكم مشيخة زوجها.

بيد أن ما يعامل به الرجل، في مجتمع بني الأعراف. غير ما تعامل به المرأة. فلم يعترض أحد من رجال صلخد، على مشيخة الشاب محمد، بعد وفاة والده. إذ خلع عليه عباءتها هيئة من رجال الدين. في مأتم أبيه المهيب. وقالوا: محمد يستأهل فهو أهلٌ لهذه الوجاهة الاجتماعية بما يتحلّى به، من طيب الخصال، وحسن الأحدوثة، ونبل الشمائل، والفروسية. فهو فارس همام. يجيد ركوب الخيل. ونـال الفوز بسباق ــ البرجاس ــ أكثر من مرة. ويكفي ذكر بسالته وشجاعته المبكرتين حين اشترك مع الفازعين من بني

الأعراف. واسترجعوا المواشي المسلوبة من قبل بدو عشيرة (العنزة). إذ كان المجلّى ببلائه، في المعركة.

* * *

أجل. عاشت ميثاء، مع زوجها، الشيخ الشاب محمد الأطرش، في حياة هادئة هانئة. تحفّ بها السعادة والرغادة، من كل جانب. تفرح له عند كل نجاح يصيبه. أو عندما يقوم، في مضافته، بحلّ قضية صعبة شائكة، كقاضٍ عشائري، في بلدته.

ثم ها هوذا فرحها يزداد. عندما بشّرته البشرى السّارة. حين شعرت بو حام الحمل، فهنأ ها. و بارك لها بهذا النبأ البهيج. لأن اكتمال الحياة الزوجية يتم، بهذا الامتداد البشري. «فالولد وتد» للأم والأب معاً.

وهكذا، أخذت المسرات تتضاعف!

ولكن هل يدوم هذا الصفو، من الحياة؟ يقولون: «الدنيا لا يؤمن لها. ولو ابتسمت في وجه المرء».

إذن. هل ستقلب ظهر المجن للزوجين المحبّين العاشقين؟

إييْهْ....! أوفتـت....! أُراني عدت أنفخ. وأنا مسبتٌ،

بجلستي الفردية، في هذه المضافة. كما نفختُ، سابقاً، حين تعاورت على شاشتي الداخلية تلك الصور البائسة اليائسة لميثاء الحزينة، حين رأيتها تهرسها الآهات والحسرات. بعد أن حلّت بها نائبة الدهر. فاختطفتْ، من بين يديها الشاب محمداً. وأبقتها أيماً. رملت بعد مضي مدة قصيرة، من زواجها السعيد.

حشرجة حادّة أصابت حنجرتي: «إيبْيْهْ....! يا دنيا....»!

*   *   *

الفصل السادس

في الحقيقة. كان الذي علمته، حينذاك. وتوارد إلى مسامعي، عن حياة فتاة قريتنا ميثاء، أنها قضتْ مدة سنة ونصف السنة، بعصمة زوجها محمد. يغدق عليها الحب والعاطفة. وتبادله هي، بدورها، المشاعر نفسها. وعرفتْ معه تذوّق شميم رائحة العرق الرجولي شديد الحموضة. وعرفتْ أيضاً، كيف تكون نشوة الحياة الزوجية الهنيئة. وكيف يكون طعم الحب الحلال الخالص، بين زوجين متوادّين صادقين. وكيف حظيت هي، في كنفه بالأمن والأمان والسلام. والحماية من كل عين لصدّافة، ولسان طويل. ولذا أقبلت، بكل طيبة خاطر، على تربية ولديه: (نسيب وجاد الله). اللذين وضعهما في عهدتها، للوهلة الأولى. فلم يزعجها هذا الأمر الصعب على الضرّة عادة. وذلك كرمى عيني

محمد ـ زوجها ـ وبخاصة، عندما شعرت أنه صار يرتكض في أحشائها، منه، مولود ثالث. قالت له في إحدى جلسات خلوتهما الحالمة، وقد وضعت يدها على بطنها، الذي اندفع قليلاً إلى الأمام:

ــ أرجو من الله تعالى أن يكون (ذكراً).

ثم ابتسمت له. وأفغمته بعطر أنفاسها، التي جاءته كهبّة نسيم ندي، تنطلق في صباح ربيعي.

ابتسم لها بدوره:

ــ يا ملاكي. (البنت) مقبولة منك كالولد.

شعّت له بلؤلؤ أسنانها:

ــ يبقى الولد سنداً، في الحياة..... إيه.. لا نعرف ما الذي تخبّئه، لنا، صروف الدهر، يا محمد؟

وكأن كانت أبواب السماء مفتوحة لها، في هذه الساعة. وقبلت دعاءها. فبعد بضعة شهور، بشّرتها القابلة أم سعيد بمولود ذكر:

ــ ماذا تريد أن تسمي ابنك، يا محمد.

ــ نسميّه حسيناً، على اسم جدّه لأمه... هيء.... هيء / وضحك.

ضحكت ميثاء معه بفرح وقالت:

ــ يبدو أن والدي، ما زال على قيد الحياة، يا حبيبي.

إذن، نسميه سلمان، على أسم جدّه لأبيه.

ــ وهو كذلك.

* * *

وبعد هذه الولادة.

فتنت ميثاء بمولودها (سلمان). وعرفت به تذوّق طعم حب الأمومة المقدّس. فغالت في عاطفتها هذه. كما غالت في حبها الأسري. تجاه أهل زوجها. بعد أن رسخت جذورها بينهم، بهذا المولود الذكر. الذي صار يحبو في دارهم الكبيرة، حبوات الخير والبركة.

وبالمقابل. أهل الدار. زادوا من محبتهم لها. فراحوا يرمقونها بعين الألفة والحنان؛ وكلما نهضت من مخدع نومها، ودرجت في فناء الدار؛ يحيطونها بنظرات جيّاشة. ملؤها المودة والعطف:

ــ هذه الزوجة الفتيّة مذكار.

ــ أنجبت (سلمان). «والحبل على الجرار»!

وتنال نصيبها، من الاحتفاء، وزقّ القبل. ما لا يحصى في اليوم.

وبالمناسبة. أجدني محايداً. وأنا أقدّم العذر، لمن يرغب في إنجاب الذكور، من بني الأعراف. إذ الظروف المحدقة بهم في الحرب والقتال، من كل جانب. تبرّر لهم هذه الرغبة. وتجعلهم بحاجة ماسّة للرجال.

على كل حال، كانت أخبار «سعادة» ميثاء تصل إلى والدها حسين، في عرمان. وكان هذا. يبتسم لابنته، من أعماق نفسه. وكذلك والدتها،(سميّة). كانتْ لا تقلّ عنه بهجة و اغتباطاً. إذ كادت تخرج من جلدها، من شدة فرحها، بابنتها التي بلغت الذروة في حياتها الزوجية المشتهاة.

نعم لم يكن أحد منهما يفكّر في أن هذه الأيام الباسمة، ما هي إلا طعوم «أشراك»، لدنيا غدّارة. تكشّر عن أنيابها كغول أسطوري. تفري أبناء البشر. وترديهم صرعى الموت.

يا للفاجعة! لقد اختطفت يد المنون «الشاب الظريف، والزوج اللطيف» محمد الأطرش، من بين أيدي زوجته، وأولاده، وأفراد أسرته.عن عمر لا يتجاوز السادسة والعشرين. دون سابق إنذار. إثر نوبة قلبية حادّة.

بعد أيام العزاء. بل بعد أسابيعه. شعرت ميثاء بالوحدة، والوحشة اللتين تعتصران النفس الإنسانية، وتحيلانها خواءً. أين أيام عزها مع زوجها (الفقيد)؟ إذن. فلتغدق (المحبة ـ العوض)، على وليدها الطفل سلمان وعلى أخويه نسيب وجاد الله. ولتجابه هذه الرزيئة الجسيمة، بكل صلابة الانثى وعصاميتها.

بلى. رضيت بحكم رب العالمين، بهذه الرملة. وجرّدت لها نفسها. بإرادة وعزيمة قويتين. وإن كانت مازالت في عزّ صباها وحيويتها الجسدية. فهي لا تتجاوز العقدين والنصف، من عمرها. كظمتْ غرائزها. وكبحتْ نداء خلاياها. بل ضحّتْ بكل ما يعتور مملكة الجسد لدى الأنثى، من دفء الزوج، وعبق رجولته، لتنصرف، بالتالي، إلى تربية (وحيدها). وتنشئة أخويه.

وأذكر أو أستذكر، ـ وأنا أبو حمّاد ـ الذي ما زلت منزوياً في هذه المضافة، التي تدرّ عليّ حليب (الماضي) فامتصّه كطفل رضيع استلهاماً وإشراقاً. بدلاً من الطعام، الذي رفضته، في هذا الصباح. أذكر أن والدي ميثاء ـ (حسين وسميّة) ـ زاراها بعد مضي مدة (العدّة). ورفضتْ طلبهما:

ـــ يا بنتي، أنتِ ما زلتِ في ريعان شبابك. ويجب أن تستدركي أمرك...

ـــ يا أمي..........

ـــ ميثاء. إذا ما تزوّجتِ. فابنك سلمان سيكون في بؤبؤ عيني.

ـــ يا أمي.... / قاطعها والدها:

ـــ صدّقي كلام أمك، يا ميثاء. وأنا الكفيل. والله خير الشاهدين والكافلين.

ـــ يا أبي. بعد محمد رحمه الله تعالى. لا أنتوي زوجاً آخر و... / قاطعتها أمها:

ـــ ألف شاب مثله. يلثم يدك.

ـــ لا يا أمي....

ـــ يا بنيّتي. أحب أن أغمض عيني، وأنت في مأمن من هذه الحياة. هذه الدنيا. هذه الأفعى.....

ـــ يا............ / قاطعها والدها:

ـــ وأنتِ أدرى الناس بها، بما أصابتك!

ـــ لا تخفْ عليّ يا والدي حسين. ابنتك ابنة رجل، وأخت الرجال.

تنهّدت سمية:

ـــ ولكن المرأة تبقى امرأة.

ـــ خلاصة القول: لا أترك ولدي، فلذة كبدي، للعمّات، والـ...........

ـــ يا..............

ـــ يا...........

أخيراً سلّم والداها الأمر لها. وأطلقا يدها في حرية التصرّف بحياتها الخاصة.

وهي من جانبها، اكتفت منها، بهذه الزيجة الأولى والأخيرة. وبقيت مع وليدها في دار صلخد. يبغم ويحبو،في جنباتها. وهي تدرج وراءه، كدجاجة كبيرة. باذلة كل جهد، في أن تعوض عليه ما فقده، وما سيفقده، بأبيه الذي قضي عليه ألاّ يراه حيّاً، في هذا الوجود. وأن تكون، هي، الأم والأب له. تحدب عليه. وترعى شؤون طفولته. بل تسعى إلى تأمين مستقبله. وما له من حقوق أسرية في الإرث، كأخويه نسيب وجاد الله. ثم تسلّمه إلى الحياة وقد بلغ طور الرجولة راشداً، كبراءة ذمة.

تقلقلتُ، في جلستي ـ التربيعة ـ هذه. وأنا على دكّة

المضـافة. نعـم. فـي ذاك المكـان بالـذات. رأيـتُ ميثـاء نفسها. وقد جاءت إلى بيت أبيها. وسلّمتْ عليّ، إذ كنت، في زيارة له. تحرّكتُ لأنهض وأغادر. ولكن هي أصرّتْ عليّ أن أبقى:

ــ أنتَ من أهل البيت، عمي أسعد، ولا أسرار، عندنا، تخفى عليك، كصديق مخلص، ووفي لوالدي......

عدتُ، و تورّكتُ، في جلستي. بعد أن رطّبتُ شفتي، برشفة لاذعة من القهوة المرة.

غرزتُ كوعي في مخدة الصوف. ورحت أصغي؛ كما أراني أُصغي الآن، لهذه الهواتف المتلاحقة، في «جوّانيتي»

زفرت ميثاء نفساً كاوياً، بتنهيدة طويلة. الأمر الذي جعل والدها ينزعج:

ــ خير إن شاء الله،ميثاء. دمي يهرق فداءً لك....

ــ إيِيْهْ....! / عاد وزفر، هو بدوره. وتابع:

ــ ما الذي تشكين منه، يا بنتي؟

ـــ....... يا والدي لقد تضافرت عليّ كل عناصر القربى، من عمومه وخؤولة لولدي زوجي: (نسيب وجاد الله).....

ـــ أف... ! أف ف ف! / شهق والدها شهقة طويلة. بينما هي تابعت:

ـ قضية الإرث هي السبب. يريدون أن يوزّعوا تركة المرحوم زوجي على ولديه نسيب وجاد الله فقط، ويحرموا ولده سلمان....

من جهتي ـ أنا ـ كنت قد صحت بأعلى صوتي:

ــ وَلْ...! وَلْ...! إلى هذه الدرجة؟ ألم تبق شهامة عند البشر؟

والدها حسين جحظ عينيه. واحمرّ وجهه. تورّكت ثانية، وأنا استرق الكلام برهافة أذني.

نطق والدها يكرّر عليها السؤال:

ـــ يعني، يريدون حرمان ابنك سلمان من ميراث والده؟

ــ لقد أصرّوا، يا أبي، وأجمعوا، على أن حرمانه، من إرث والده. الذي هو حق شرعي له أُسوة بأخويه.

عاد حسين وأطرق. وأنا، من جهتي، أخذت أطرف بعيني تابعت، هي:

ــ قالوا لي: ابنك يرث من دار عرمان، التي لا تأكلها النيران. لا من دار صلخد...

عدتُ، وتدخلتُ:

ــ يا لطيف! هذا إجحاف جائر. لم يحصل مثله في مجتمع بني الأعراف.

ــ نعم، يا عمي أسعد. لم يردّوا على اعتراضي.

حرّك والدها حنجرةً جافةً في عنقه:

ــ دعيهم في غيّهم يعيثون، يا ميثاء. وعيشي، في داري، مع ابنك. وكل أملاكي موقوفة على حسابك وحسابه.

فجرتْ عينيها بأبيها، كلبوة تحمي جراءها، في عرينها:

ــ لن أرضخ لحلفهم غير المقدّس ضدّي، وضدّ ابني. سأردّ عليهم. وأكيل لهم الصاع صاعين. وأنا ابنة (الأطرش) حسين.

ــ يا ميثـ.....

ــ نعم. أنا الميثاء. وسيعرفون، عمّا قليل، من هي الميثاء!..

زمّ والدها شفتيه. وأخذ يفكّر أمامه صامتاً. كأنه يقرأ ورقة مكتوبة... بينما،عادت ميثاء، واتجهت نحوي ، وكلمتني بأدب واحترام:

ــ أرجو أن تساعدني، لدى والدي، يا عمي أسعد؛ ليسمح لي بالدفاع، عن حقوق ولدي المشروعة. وفي الطريقة التي أشاء..../ أخذتْ نفساً ثم زفرته بقوة وتابعت:

ـــ سلمان هذا أمانة، في عنقي. أودعها، عندي، المرحوم والده محمد. وأنا أولاً وأخيراً، وليّة أمره ....

استمهلتْ قليلاً. ثم:

ــ أرجو أن يتراخص، معي، والدي. ويطلق يدي، في مقاومتهم. بل أرجو أن يوليني ثقته، في هذه «المخاصمة». وكفى..........

نظر إليّ الشيخ حسين، بعينين نديتين. تعبّران عن أسفه، من ظلم ذوي القربى. ثم حرّك رأسه. كأنه يسألني. بينما أنا استبقتُ الأمر:

ــ هَبْها ثقتك، يا حسين. فهي ابنتك. وجديرة بــ.......... / قاطعني:

-ــ تصرّفي كما تريدين. يا ميثاء؛ ولو وصلتِ إلى مركز الولاية بدمشق. لا إلى مدينة السويداء فحسب!

ــ ها.......... ه!؟

ــ عمّك أسعد الجندلي، يشهد عليّ.

ــ الله تعالى خير الشاهدين.

*   *   *

الفصل السابع

الذي عدتُ علمتُه. أو حُدّثتُ به، من أبي ميثاء، في هذه المضافة. التي ما زلت مستمتعاً بما أُصغي إليه، من همس مجريات أحداثها. وما تمَّ، في جنباتها من كلام؛ أن أم سلمان ميثاء، عالجت موضوع حرمان ولدها، من الميراث، و عدم مساواته بأخويه. في معاملة (حصر الأرث). بعد أن يئست من الأقارب، جميعاً، في صلخد. وسفه طلبها:

ـــ يا جماعة. أنصفوا هذا القاصر اليتيم. وانطقوا بالعدل والحقّ.

ـــ حقه عند جده، بعرمان.

ـــ هذا تمادٍ صارخ. هذا بطل واضح. سأحصل على حقه على الرغم منكم.

ـــ «ذراعك من الخام اكسيه، يا ميثاء».

ــ سأذهب إلى السويداء، وألغي قراركم الجائر.

ــ بل اذهبي إلى دمشق. وإلى استنبول. وقابلي السلطان.

* * *

في السويداء، وجدت الأبواب موصدة بوجهها. طبعاً بتدخل سافر من (صلخد).

خصومها من ذوي النفوذ العالي! هل تستسلم؟، لا! العناد، في كثير من الأحيان، يعود بميزات مفيدة. وإذا ما استعمل بإدارة واعية، يتحول إلى خاصيّة فعّالة، في نيل الحقوق، وفي الثبات والصمود. كما له ميزات إضافية، في تحصين الشخصية لدى الإنسان .

غَلَى الدم،في عروق جسم ميثاء. «سأكيدهم وأنتصر عليهم، ولينتظروا مني سوء العاقبة».

صمّمتْ على شدّة المكايدة والانتقام. ولتصح معها مقولة ((النساء أكثر انتقاماً وكيداً، من الرجال، بمئة مرة)).

«أنا لست أقل دربة ودراية منهم. انا ابنة شيخ عرمان. وإذا ما أقفلت السويداء أبوابها. فأبواب دمشق مشرعة مفتوحة».

إذن. أين أنتِ، يا دمشق، يا عاصمة الولاية؟

ــ يا والدي حسين. لن أستكين لهم....

أثبتَ عينيه عليها. أما مه فتاة. بل ا مرأة صلبة لا تلين قناتها. خلّل شعر لحيته البيضاء، بأصابع يده اليمنى، وقال:

ــ ماذا ستفعلين، يا قرّة العين؟

ــ يا والدي اعتزم السفر إلى دمشق، وأكيدهم.

ابتسم لها: «إن كيدهن عظيم»[١]

أجابته في الحال: «إنهم يكيدون كيداً. وأكيد كيدا»[٢]

نطقت بدوري:

ــ ما شاء الله! لا تخفْ عليها، يا شيخ حسين. ابنتك عن عشرة رجال مجرّبين. بعد هذا (الفقه). فضع يدك في ماء باردة. فابنة الرجال لا تخشى الرجال!....

وهكذا، نالت ميثاء، من أبيها حرية التصرف المطلقة، في قضيّة تحصيل حقوق أبنها.

* * *

---

١ سورة يوسف /٢٨/.
٢ سورة الطارق /١٥/.

عدتُ علمتُ. كما علم جميع أهالي عرمان، في ذاك الزمان. أن ميثاء، أم سلمان هذه. تمكّنت من أن تصل إلى دمشــق. وتقابــل، فــي (الســراي) القائــد العــام، والحــاكم العسكري، للمنطقة الجنوبية، من سورية، البكباشي ممدوح باشا، الذي كان بيده الحل والربط، في كل القضايا.

ثــم. أجـدني الآن. اســترجع مــا ســال علــيّ مــن بيــان ذاكرتي، في سيرة هذا البكباشي ممدوح باشا. وكيف تسلّم منصبه الخطير بدمشق. إثر خصومات حدثت عام ١٨٩٦م. بين بعض الأهالي، من سكان نجران وصلخد في جبل بني الأعــراف. وبــين أهــالي قريتــي (كحيــل) و(الحــراك) مــن حوران. وأذكر تلك (الفزعة) العارمة، التي احتشدت في ساحة صلخد (المقيل)، من قرى (المقرن القبلي):

ـــ النشــامى، يــا زغابــة. عصــابة مــن أهــل (كحيــل). وشرذمة من لصوص (الحراك) سلبوا قوافل الحنطة، لأهل صلخد، ولأهل نجران. نهبوها، قبل أن تصل إلى محطة القطار في قرية (خربة غزالة).... النشامى..... النشامى....

وجرى لغط عظيم، في الاجتماع الكبير. هاج الرجال الأشاوس وماجوا:

ــ يا شيخ محمد، يا أبا نسيب. دعنا نهجم ونفكّ القوافل.

والشيخ أبو نسيب محمد الأطرش يصرّ بأسنانه:

ــ يا جماعة الخير... رجاء الهدوء. لقد علمت أنه يوجد عدة (مفازيع) قادمة إلينا، و لتكن نقطة، علاّمنا ــ نقطة الازدلاف للقاء ــ قرب قرية (أم ولد).

والتقى (المفازيع) جميعاً قرب (أم ولد) الحورانية، في حندس من ليلة عاتمة. وشنوا هجوماً كاسحاً على قريتي كحيل والحراك:

« يا غيرة الدين والكرامة. واسترداد الحقوق... ».

«يا........................». «يا.......................».

نخوات وهتافات....

ثم فَتَـكَ المهاجمون، بأهالي القريتين. واستردّوا قوافل الحنطة المنهوبة. وباعوها إلى تجّار محطة (خربة غزالة). وعادوا، إلى قراهم.

بعد هذه المعركة الخاسرة لسكان قريتي (كحيل) و(الحراك) . ذهبت نساؤهم، إلى مقر الوالي العثماني. وهن

يولولن. ويسكبن الدموع، ويمزّقن الثياب. كما وصفهم شاعر بني الأعراف:

«نزلـــت حـــريم أهـــل القرايـــا وشـــكت

بالشـــــــام شـــــقّواجيوبهم واللثـــــــايم»

استجاب الوالي لشكواهنّ:

«كفى....كفى، يا نسوة. سأقوم بتأديب الفاعلين».

«الله يـديمك لنـا. ويـديم السـلطان فـوق رؤوسـنا. أنـتم نصرة الدين، على هؤلاء الكفار»!

ثم أمر الوالي العثماني، بإرسال حملة تأديبية، إلى جبل بني الأعراف، بقيادة الضابط أدهم باشا.

قابـل بنـو الأعـراف هـذه الحملـة. وكنـت واحـداً مـنهم. إضافة إلى عددٍ، لا بأس به، من مقاتلي قريتِي عرمان. هذه القرية التي تكتنفني الآن بحنانها وتاريخها. قابلوها، بعدة مصـادمات عنيفـة. أشـهرها معركـة (قرّاصـة)، ومعركـة (نجـران). ومعركـة (أم العلـق). ومعركـة (الشـقراوية) الحاسمة، التي اندحر بها (عسكر) أدهم باشا وولوّا الأدبار.

غير أن الوالي العثماني، لم يعترف بالهزيمة. بل أمدّ فلول الحملة المنكسرة، بحملة أخرى. فتضاعفت القوات

العثمانية عدداً وعتاداً.

وتقدّمت، بطوابيرها نحو الشرق، في سفوح جبل بني الأعراف، حتى وصلت، إلى مدينة السويداء ـ قصبة الجبل ـ واحتلتّت قلعتها الرابضة على الرابية الشرقية منهّا.

كاد الأمر يستقّر لأدهم باشا، لولا أن مقاتلينا عادوا إلى الهجوم. تفازعنا، من قرى الجبل. وحاصرنا القلعة، من جميع الجهات. وهدّدنا أدهم باشا بالإبادة التامة لحملته. وسحقها عن بكرة أبيها. إن لم ينسحب من أرض الجبل كلها. وأذكر، بالمناسبة، أننا أشعلنا (النيران) على قمة جبل (القليب). إنذاراً بإعلان الحرب. كما أذكر أننا أرسلنا رسولاً لأدهم باشا تبرئة للذمة؛ بهذا الخصوص:

«أنقل لك إنذاراً شفوياً، يا أدهم باشا، بالانسحاب من جبلنا. دون قيد ولا شرط».

« من أنت يا هذا؟ بل ما هو اسمك يا رسول بني الأعراف»؟

«اسمي هلال الحمود»

«أهلاً بك، يا هلال. دعني أفكّر...».

فكّر أدهم باشا مليّاً:... أيسجنه؟ أم يقطع رأسه؟ أم يطلق سبيله ليتم إحكام خدعته.

«يا هلال الحمود. قل لجماعتك: أدهم باشا يستمهلكم مدة أسبوع».

«يعني تريد أن تأخذ عطوة؟».

أفرج أدهم باشا شفتيه، بابتسامة صفراء، لهذا المصطلح المحلي. وقال:

«عطوة. مهلة. هدنة. سمّها ما شئت. المهم نوقف القتال مدة أسبوع... انصرف».

من المؤكد أن سبعة أيام مدة كافية، لوصول المدد العاجل من الوالي بدمشق. وبالفعل قد أرسل هذا الأخير حملة جرّارة، بقيادة الضابط المجرّب، البكباشي ممدوح باشا الذي استطاع أن يفك الحصار عن القلعة. عقب معركة ضارية. وخلّص (أدهم باشا وعسكره) من فناء محتّم. الأمر الذي جعل الوالي، بدمشق يقلدّه وساماً ـ (نيشان) ـ رفيعاً، ويعيّنه حاكماً عسكرياً، على المنطقة الجنوبية، من ولايته.

وكالعادة. لم يستسلم بنو الأعراف في جبلهم. إذ استمرّوا، في مقاومتهم لممدوح باشا. وجرت معارك عدة بين الطرفين.

وبالتالي عجز عن فرض سيطرته على الجبل، وإخضاعه للحكم العثماني، وهكذا بعد فشل الضابط المحنّك القدير، في مهمته بالجبل. لجأ إلى المشورة، وأخذ الرأي، من أصحابها، في بادئ الأمر. عملاً بـ «أول الحزم المشورة».

ــ ما رأيك، يوزباشي (أرنوط)، بهؤلاء القوم؟

ــ عليك، أفندم، بالمهادنة أولاً. فهم ذوو تاريخ طويل بالحرب والقتال.

ــ يعني نداريهم، ثم..........؟

ــ ثم تنصب لهم الأحابيل، والخدائع. أفندم.

وهكذا كان.

عاد ممدوح باشا في تعامله معنا ـ نحن أهل الجبل ـ بالمراوغة والحيل. كما هي عادة قادة السلطات العثمانية عامةً. وقد قال فيهم، آنذاك، شاعرنا الشيخ شبلي الأطرش:

«إلــــّي وثـــق بهـــم، لا شـــك مجنـــون

مـــن آمـــن الثعبـــان، مـــالو ســـلامة»

فأظهر ممدوح باشا التهاون، في سياسته معنا. وتقرّب من وجهائنا، بصورة خاصّة. وبعد أن استتبَّ له الأمر ـ نوعاً ما ـ ألقى القبض على أكثر من مئتي وجيه. علماً أنه قطع

على نفسه عهوداً وأيمانا مغلّظة،غير مسبوقة. وأمسك بشاربه ـ كعادتنا ـ بأنه لا يغدر بهم، إذا ما لبوا طلبه، في مقابلته.

ثم قابلوه. فحجزهم ونفاهم، إلى أماكن بعيدة، من أصقاع السلطنة العثمانية، المترامية الأطراف. وذلك من أجل أن يبقيهم لديه، كضمانةٍ أو وسيلة ضغط، علينا.

وأُراني أعود، وأشاهد أطياف شخصّياتهم المهيبة الشجاعة. بعد أن تبلّغوا أمر نفيهم:

ــ أين منفاك، يا شيخ شبلي؟

ــ قالوا لي، في أزمير.

ــ أين تقع هذه (الأزمير)؟

ــ علمت أنها مدينة، على شاطئ بحر (إيجيه). مقابل بلاد اليونان.

ــ أوووف.....! ما أبعدها!

ــ وأنت يا شيخ يحيى؟

ــ منفاي في جزيرة رودس.

ــ أين هذه الجزيرة؟

ــ في وسط البحر المتوسط.

ــ يا............ه! ومن معك؟

ــ معي الشيخ وهبة. بل أنا معه..هئ. / ضحك.

ــ أيجوز جمع رجلين منفيين، في مكان واحد؟

ــ لا، بل سيبعدون الشيخ وهبة إلى جزيرة كريت.

ــ الشيخ قفطان إلى أين؟

ــ أنا مبعد إلى جهات الأرمن.

ــ وأنت يا شيخ مزعل؟

ــ إلى قسطموني.

طبعاً نال هؤلاء الرهائن المنفيون، من الظلم والتعذيب، ما نالوه. كما وصف حالهم شاعر منفي، معهم:

«ولمــا وصــلنا الحــبس بالــذل والشــقا

كــان الــدم مــن كــل المحــابيس عــايم»

بعد أن ظلم ممدوح باشا أهل الجبل بحكمه. وتفاقم أمرهم معه. تداعوا إلى عقد اجتماعات سرّية، للثورة عليه. ولا أنسى أن أهم الاجتماعات التأم في هذه المضافة بالذات. وأجدني أستذكر بعضاً مما دار على ألسن المجتمعين:

ـــ يا جماعة الخير والمروءة، لقد وصل الموس إلى اللحية.... / قال معزبنا، الشيخ حسين أبو ميثاء.

ـــ بل وصل إلى الرقبة. وكاد يقطع جوزة العنق. / رَدَّ عليه صهره محمد الأطرش، شيخ صلخد.

أجبتُ أنا أسعد الجندلي، من ناحيتي:

أقول لكم، أنا العبد الفقير لله تعالى: إن بني الأعراف لم يسكتوا على ضيم، أو ظلم. ولن يسكتوا. وتاريخهم يشهد لهم.

وقف هلال الحمود. وكان ذا وجه أنمش مجدور. يلوح الشيب عليه، وأجابني:

ـــ نعم. نعم. يا أبا أكرم. المهم أن نعدّ العدّة، للثورة. ونتّخذ لها الاحتياطات اللازمة

ـــ...................... / وكلام تلو الكلام.

ثم تقرّر الرحيل مع العيال إلى حصننا التاريخي المعروف (اللجاة). واللجاة هذه منطقة وعرة مملوءة بالصخور البركانية القاسية. تقع على أقدام سفوح جبلنا، في الزاوية الشمالية الغربية منه. ولبني الأعراف فيها ماضٍ مجيد، في حربهم المعروفة مع إبراهيم باشا الإلباني. عامَ ١٨٣٨م.

بعد أن اعتصمنا بـ (لجاتنا). حاصرنا ممدوح باشا، بقواته، في اللجاة، من جميع الجهات،ولكن كان فرساننا البواسل، يغيرون على قطعات جيشه، ويفتكون بجنودها. ويفكون الحصار، وينهبون قوافل المدد. ويكسبون الغنائم الكثيرة، من مؤن وعتاد وذخيرة. وكانوا يتوغلون، بالأغلب، في (طريق الشام). ويقطعون سبل الاتصال كافة.

ثم أذكر أن الضربة القاضية على قوات ممدوح باشا، قد حلّت في معركة حامية الوطيس ـ كما يقال ـ عرفت بـ (كبسة قنوات). وقد غنمنا فيها خمسمئة حصان. إضافة إلى غنائم أخرى. الأمر الذي جعل ممدوح باشا يطلب المصالحة مرة ثانية، مضطرّا ـ أي تحت ضغط الضرورة ـ وبخاصة أن السلطان العثماني نفسه. قد شغل بحرب اليونان الاستقلالية. فطلب من والي دمشق أن يقوم (بمراضاة) بني الأعراف.

وفي هذه المناسبة قَدِمَ إلينا قائمقام (دوما)، الأمير أمين أرسلان، وطلب (المصالحة).

وكانت بهذا الشأن مشادّة:

-ـ يا بني الأعراف. لا تقبلوا الصلح، إلاّ بعد عودة المنفيين من شيوخنا جميعاً.

ــ يا حمد المغوّش. فاوضْ أمين أرسلان بعودتهم...
ــ وإلا. لا صلح ولا مصالحة بيننا.
ــ ابشر يا عمي عجاج.
ــ والشيخ شبلي الأطرش، على رأسهم.
ــ كما تريد، يا أبا ميثاء.
ــ.........................

* * *

وهكذا، ظلت الأمور، في الجبل قلقةً مضطربةً، ولا سيّما للسلطات العثمانية، لذا عاد الوالي بدمشق (حسين باشا)، وأكدّ تعيين البكباشي ممدوح باشا، حاكماً عسكرياً عامّاً، على المنطقة الجنوبية، بكاملها. يديرها من مكتبه، بدمشق. ويبقى له فيها حقّ الاحتفاظ والبتّ، في القضايا الكبيرة، التي تحتاج إلى حلٍّ وربطٍ.

* * *

الفصل الثامن

في غرّة ضحى نهارٍ باهرٍ. قد أزهر بنوره، وحرارة شمسه. استقبل الحاكم العسكري، القائد العام، للمنطقة الجنوبية، البكباشي ممدوح باشا. الصبية الهيفاء، ذات الحسن والجمال، والقدّ الممشوق، والرأس المرفوع المؤطر بالفوطة، والمرصّع بالطربوش، المشنشل (بالغوازي والرباعي)؛ «ميثاء الأطرش».

وشكتْ إليه دعواها، بحقوق وليدها سلمان، بميراث والده محمد، المتوفى منذ ستة أشهر: «يا سعادة الحاكم العام، ولدي سلمان له الحق بإرث والده، أسوةً بأخويه نسيب وجاد الله. و............».

أجل. كانت هذه الفتاة، قد أُرشدت إلى (السراي)، في (المرجة). وأحدثتْ بها هذه المقابلة الفريدة من نوعها، مع

البكباشي. حقيقة كانت مقابلة جريئة، بالنسبة لامرأة، من نساء بني الأعراف. والأغرب، فيها، أنها ما زالت في طور الشباب، يخشى عليها.

وعلى الصعيد الواقعي. كانت هذه المقابلة النادرة مدهشة لممدوح باشا نفسه. وذلك عندما شاهد،في مكتبه كياناً من الجمال مجسّداً بهذه (المخلوقة) الوهّاجة. تجلس أمامه على الأريكة هيولى خالصة. تدفق سحراً وبهاءً. خاطبته، وهي تخرج الكلمات (الدرّ) من بين أسنانها (اللؤلؤ)؛ بتوءدةٍ، وكأنما تخرج الجواهر الفريدة.

لم يرد عليها، في بادئ الأمر، طبع على عينيه ضباب خفيف. هل تكلـّمت، كبنات حوّاء؟ لا، أبداً. هذه حورية تتكلمّ، قد نزلت توّاً، من عليائها.

لم يصدّق هذا الرجل، الكلف بالجنس اللطيف. أن ذلك (النطق) السامي، الذي سمعه. الصادر عن التكوين المثير، المسكوب قبالته، بقالب بشري. أنه قد سمعه فعلاً.

ميثاء ما زالت تطرف، بأهدابها الوطف، نحو الأرض، وتنتظر الجواب. بينما الأضواء والتلاوين والظلال، ازدادت تستطع مشتعلة ـ في غرفة المكتب، بل في داخل البكباشي الجيّاش!

«أف....! ماذا اعترى هذا الضابط المصعوق أمامي»؟ / كلّمت ميثاء نفسها. ثم وقفت. كأنها تستعجل الأمر. هو حتّماً، برّر. أو أجاز لنفسه كل ما فتن به، من جمال عظيم. أمامه صبيّة ولا كل الصبايا. فارعة الطول، فريدة القامة ضامرة هيفاء. الأرداف كنز، البشرة حرير أبيض نفناف. تتلألأ بها كالبلّور، من خلال الوجه واليدين الناعمتين الطريتين، كالجبن!

وأخذ يتلمّظ. كأنه يلعق عسلاً:

ــ تفضّلي اجلسي.

ثم نادى الخادم. أجابه هذا باحترام زائد: «نعم أفندم».

ــ فنجان قهوة.

ــ حاضر أفندم.

عاد وأكد هالات المهرجان الساحر، التي تتلامع قبالته: اليدان تسطعان، كأنما سكبتا، من نور مجمّد، وهي تمسك بهما فنجان القهوة، عن الطربيزة. والأنامل شعّت ببريق أخّاذ، كأقلام الفضة....

يا للماسة المجسّدة التي تشعشع، في الغرفة! ما هذا البذخ في الروعة والجمال!

وظـلّ ممـدوح باشـا مبهـوراً، ومثـارا، بمفـاتن ميثـاء الأطرش، وأعطافها ووهيج كيانها. احتار:

أيصغي إلى همسه الشبق، من حديث نفسه؟ أم، إلى ما ينثر على مسامعه، من (النطق الغاوي). تختلج به شفتان مجمّرتان؟

وشعر كأنه عاد من غيبوبة، حين رآها ثانية واقفة. ترفل بتنورتها المزهرة. وكأنما خيطت، من ورود الربيع، وأوراق الأغصان! بل، اختصرت بستاناً من رياض غوطة (دمشـق الفيحـاء). ليعبـق فينانـاً، بريـاحين النـرجس والفـلّ والياسمين والنارنج، في هذا المكان.

صـعّد نظـره إلـى رأسـها. هـا هـي ذي تطـرح علـى الطربوش المذهب فوطة، من الشاش الأبيض. بان شعرها من خلالها ضفائر معقّصة، تدّلت على كتفيها جدائل سوداء. كأن صاغها حائك ماهر، من قطع الليل....

أين أنتِ، يا مريم المغربية؟ يا معشوقة السلطان عبد الحميد؛ من هذه (الميثاء) العجيبة؟ إنك، يا مريم، لا تساوين قيراطاً واحداً منها! إذن أيتها (الميثاء) النادرة. خففي وطأة الفتنـة لـديك. لقـد اكتمـل، نـوراً، وجهـك المـؤطر بشـاش البياض، وصار أكثر من بدر. والبهاء فيه أكثر من جمال.

والتصاوير والتلاوين أكثر من سطوع.و.........

وظـل ممـدوح باشـا يتملّـى ميثـاء. فطـن، بعينيهـا النجلاوين، وهما تطرفان. لِمَ لم تغر منهما عيون (المها)؟ كما قال شاعرهم (علي بن الجهم):

«عيـون المهـا، بـين الرصـافة والجسـر

جلـبن الهـوى، مـن حيـث أدري، ولا أدري»

وأخـذ يشـتعل بهمـا حرائـق تهـب فـي جوارحـه، بكـل مكنته، من الاشتهاء الجارف الطاغي.

حقيقـة الأمـر. منّـى نفسـه بـالزواج، مـن هـذه (الفتـاة) العجيبة. «هذه صيدة جاءتك، يا ممدوح، على حين غرة، من غوامض السماء و.......... ».

ولكـن لـم ينتبـه لذاتـه، إلا وميثـاء تـدرج فـي الردهـة الكبيرة، من السراي تريد أن تخرج. شعر أن عقله طار، من رأسه. وخف ثقل جسمه وأصبح أقل من ريشة. وضع يده على صدره، من الجهة اليسرى. قلبه يتواثب بخفقان سريع، يريد أن يقفز من مكانه.

وكاد ينفد زمام أمره كليّاً، تجاه هذه المرأة الأكثر من أنثى. الأكثر من أسطورة. طلب، منها: «عودي،

واجلسي، في الغرفة، يا ست ميثاء».

هي لم تجرؤْ على مخالفته، وللوهلة البكر. بينما هو أخذ يكردح أمامها. ويشدّ من عزيمة صبره، حتى لا ينهار: «اضبط أعصابك، يا باشا. شد براغيك أكثر. لا تتعجل أمرك معها. هي تحت يديك. حتماً لا ترفض».

ثم جلس على كرسيه الفاره الوثير. ليضفي عليه هيبة (البكباشي) ووقاره.

«الست» ميناء عرفت،حتماً، بحسها النسوي. وبأقل بديهة فطرية ما يرمي إليه هذا الحاكم العسكري المشبوق. كما عرفت،أيضاً، أنها خدعت بمرة كيدها، وقدمت إليه. لم تخفَ عنها كل كلمة نطق بها. ولا كل نأمة أو حركة صدرتا عنه. بل ما اختلج به في داخل صدره، تجاهها أو دار بخلده. كان عندها واضحاً، لعيانها، فندمت أشد الندم. وصممت على أن تتخلّص، من شباكه، بأية وسيلة، تحفظ لها شرفها وكرامتها: «يجب أن أنفذ من هذه (الورطة)، التي وقعت فيها سليمة. إنها أكبر غلطة ارتكبتها، في حياتي..».

«أف...! كيف أصبحت كالفريسة، بين يدي هذا الطاغية الهائج. الذي لا يرد له طلب، كحاكم عسكري

عام... ربي، أنت نصيري. أولاً وآخراً، في وحدتي، هنا، أمام هذا الوحش الضاري، أنت. يا إلهي... يا معين... يا قريب، يا سميع، يا مجيب...».

وناجت ربها في سرّها كثيراً. ولعنت المال والميراث والأولاد.. «كلها لا تساوي عندي شعرة من الشرف...»

«...ربي خلصني منه، وصن كرامتي، بجاه صفيك (ص). لا معين ولا نصير لي إلآك، يا ربي... يا من انتشلت يوسف الصديق، من الجبّ انتشلني، من بين أنيابه...»

ثم تمتمت فصولاً من (الحكمة الشريفة). كانت قد حفظتها، منذ زمن، وظلتْ تلوم نفسها. وتستغفر ربَّها، في نفسها....

وبعد لحظات الصمت التي طالت أكثر من سنة! رفعت رأسها. رأتْ ممدوح باشا قد اقترب منها. وصينية القهوة بيده شخصياً: أف! لم يبال بحاجب مكتبه، الذي ارتعب، حين خطف منه الصينية. نطق بانبهار:

ــ بنفسي أقدّم لك الضيافة ثانية.

بعد لأيٍ. أجابته بلبكة:

ــ شكراً..... يا سعادة البكباشي.... ممدوح باشا.

كاد يقفز من النافذة. ولكنه عاد وتماسك. رجع إلى كرسيه، وأخذ يدترد، من نيرانه، بملاطفتها، في الكلام، وهو يلتهمها، بعينيه الشرهتين.

ــ نعم أفندم... نعم يا ست النساء ميثاء... حقوق ولدك سلمان محفوظة وستؤدى له كاملة......... من يخالف أمر الحاكم العسكري العام للمنطقة الجنوبية؛ من ولاية الشام....؟ / أخذ نفساً. وتابع:

ــ حصّة ولدك، ستبرم بموجب صك (كوشان) ــ سند تمليك ــ رسمي، من قبلنا. اطمئني. و.........

والله ستر. وضعت ميثاء يدها اليمين على قلبها. كاد يباشر معها كلاماً من نوع آخر............«يا ربي أنا عبدتك، وبين يديك. لا بين يديه، يا مجيب الدعوات، يا قريب، يا سميع. يا............ ».

وَصَمَتَتْ متحفظة، بقوة إيمانها. معتصمة بصدق دعائها. وأضحت كأنها انتقلت إلى عالم آخر، وهي مطرقة. ثم، لا تدري، كيف سمعت كلاماً:

ــ ما رأي (غيدائي) الجميلة، أن تقبل دعوتي، لتناول الطعام على مائدتي الفاخرة، في مطعم فندق (محطة

الحجاز ـ الأوريان) ـ الأذيق الذي يليق بك. وعند شرفته ترين دمشق الساحرة؟ و............

رفعت يديها العاجيتين. كأنها تريد أن تغطي بهما وجهها. أو أن تزيد، من توّسلها وابتهالها إلى الله تعالى سرّاً. بل تمتمت: «اضرع إليك يا إلهي أن تحدث لي مخرجاً». وتلت الآية الكريمة: «ومن يتّق الله، يحدث له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب». جنّ ممدوح باشا باليدين:

ــ كفاكِ دلالاً، ميثاء........ وطلبك قضي أمره........../ قال ذلك بهوس وخفة زائدتين. وكاد ينهض عن كرسيه....

ــ أرجوك......... / قالت له هذه (الكلامة)، بلطفٍ، ولم تتبعها بكلمة أخرى.

عاد وجلس:

ــ طيّب.......

ـــ غداً، سأكون عندك، يا سعادة الباشا. فالذي جاء معي، من رجالنا، ينتظرني الآن......../ قاطعها بعصبيّة:

ــ دعكِ منه. ولنذهب،إلى مسرتنا، معاً.

ــــ أنتَ أدرى الناس، ببني الأعراف وتقاليدهم، وعاداتهم. سأتذرّع باستكمال المعاملة، وآتي غداً. وأبقى

مقيمة هنا، يا ممدوح باشا. أنا عرفتُ ما ترمي إليه.

ردَّ كالأهوج:

ــ قولي يا (ممدوح حاف).

اصطنعت شبه ابتسامة، على وجهها الوضّاء. وقالت:

-ـ اسمح لي بالذهاب، اليوم يا (ممدوح حاف). أجل دعني أخرج إلى حيث من ينتظرني، وسأعود إليك. كما وعدتك..........

ــ واه..........! وسنكون أنا وأنت.......

قاطعته:

ــ نعم... نعم...... في يوم غد. في يوم غد.........

ثم حذّرها:

ــ إياك.... هَـْهْ...! إياك تلعب بك سفاسفكم، من العادات السخيفة. سأحرق الأخضر واليابس، في دياركم، إذا........

ــ كن مطمئناً لعودتي، وصدق كلامي ووعدي. أنت يا (ممدوح حاف)؛ أجل، ألا تريد محبتي؟ فأقبل، إذن طلبي هذا. كما قبلتَ طلبي ذاك. سأتذرّع باستكمال (المعاملة) وآتي.

أجابها دون وعيٍ منه:

ــ طلباتك، يا «ست» ميثاء، لا تردّ.

ــ إذن، انتظرني، في هذا المكتب الموقّر غداً.

ــ قولي المكتب وبسْ.

أجابته سليقةً:

ــ المكتب وبسْ!

*   *   *

وتمكّنت ميثاء، الأطرش، من أن تخرج من مكتب البكباشي ممدوح باشا سليمة. كما يخرج الماء، من بين أصابع اليد. كانت جدَّ مسرورة، بفرج الله تعالى. ولا تتسعها أرض. ولا تصدّق نفسها، أنها تدرج الآن، طليقةً خارج سور (المكتب ــ السجن). ولو ظلتْ عالقةً بها عينا غريمها الشاخص كالمومياء، عند النافذة المطلّة. أجل. هو لا يدري ماذا حلَّ به؟ أهي غيبوبة، أم ما يشبه الغيبوبة؟ المهم. بل الأهم. تابعت ميثاء خطوها المتسارع الواثق. دون أن تلتفت. أو أن تعي ما تحمل على قائمتيها، من جسم متألّقٍ. ينشر الأنس والجمال في كل الأرجاء!

نعم، عادت. وتأكدت. وهي، بكامل وعيها، أنها

عبرت الباب ثم البوّابة، ثم السور. ثم الشارع المجاور: «يا إلهي الحمد لك وأنت حسبي ونعم المعين النصير». رفعت يدها؛ وأشارت إلى العربة القادمة: أن تقف. كانت عربة ركاب عادية. يجرها حصانان، بدلاً من حصان واحد. ويقودها عربجي ماهر. زمّتْ أطراف تنورتها، على خصرها. و صعدت مركبة العربة الخلفية. و ثلاث ليرات ذهبية، من ذات (أم حصان). دسّت في يد العربجي، من الخلف. وأين أنتِ، يا (سويداء القلب)؟

ولكن بعد أن عاد ممدوح باشا، من سرحته الشاردة. هبّت من جديد نيران شبقه. فأخذ يرضي نفسه المهتاجة بمخايل طيف معشوقته التي وعدته بالعودة. ويتمرآها ببوح خياله، من نافذة مكتبه. يغمض عينيه، ويمايزها، بكل تفاصيل جسدها الفاتن. الذي لم يشاهد منه سوى الكاحلين الساحرين، والقدمين الصغيرتين، حينما جلست قبالته على الأريكة.

ثم عاد، إلى ذاته. وانتبه: لِمَ كنت معها، كالمسطول؟ لِمَ سمحتُ لها بالذهاب؟ هل يا ترى ستصدقني القول وتأتي، أم فرّت من بين يدي، كالطائر الذي يفرّ من أمام صيّاده، ويحلّق بعيداً عنه، في السماء: إن كنتَ تطير فالحقني؟

بَرَمَ شفتيه الجافتّين. ولعقهما بلسانه، بصعوبة. كأنما يلعق جرح قلبه. «نفسي، عادت تحدثني أن هذه العصفورة –عصفورتي- قد لا تعود. أفلتت من قفصها الذهبي........ وهيهات.............»!

بلى، حديث نفسه إليه في خلوته. يصدقه. (فالعربجي) الذي طار عقله بالأجرة المغرية، التي لم يرَ مثلها. من قبل. راح يلهب كفلي جواديه المطهمين، بسوطه اللاسع؛ ليسابق بهما الريح، نحو الجنوب، في طريق شبه معبدّةٍ ومتربة... ساعات وساعات من الجري المتواصل. ستكون ميثاء، في حرزها الحريز. في دار الأمن والأمان، بالسويداء. بل في قريتها عرمان نفسها.

ممدوح باشا الغافل الذاهل. عاد، من أمام النافذة، التي كان يشاهد فيها خيالاته. وجلس على كرسيه مهموماً مغموماً. خامره سوء الظن.الفأر أخذ يلعب بحريةٍ، في عبّه: « هل خدعتني؟ هل احتالت عليّ، كما يحتال ساحر على صبّي؟ لقد أفلتت من قبضتي........آه.........! واندماه! كيف فرط هذا الأمر مني؟ وكيف حدث؟........أنا.......... أنا الغبي. بل. أنا ألف غبّي وغبّي!».

وشرع يقرّع نفسه، ويلومها، بل يؤنّبها. لقد خاب صيده الثمين:

«تحفة فنية، من النساء خسرتها» .

«كيف تركتها تسير، في حال سبيلها. وتعبر البوّابة»؟

«هل كنت كالمخدر؟ أو كالذي يعيش في سراب الظمأ»؟

ثم قفز عن كرسيه هائجاً مائجاً: «أنا الحاكم العسكري العام للمنطقة الجنوبية، البكباشي ممدوح باشا. وتحت تصرّفي عشرات الألوف من العساكر. تصرعني فتاة بقوّة الذبابة.....»

لم يفطن إلى أن «الذمرود صرعته برغشة». بل عاد وهدّأ روعه، وهو يتعلّل، بعودتها في اليوم الثاني.........

غير أنه لم يطمئن. إذ راح يصغي ثانيةً، إلى حديث قلبه المكلوم. يبثه شكواه. وهو يقول له: «لا. لن ترجع».

أطرق أمامه: «هذه الميثاء، التي سلبت مني العقل والوعي. يجب أن أفوز،بها،زوجة. أو محظية، قهراً وعنوة عنها. المهم أن تعيش معي في قصري الآخر. بعيداً عن زوجاتي، في قصري الأول. وأنعم بها».

-«نعم. نعم. يجب أن أحصل عليها بأيّ ثمن. وبأية

وسـيلة. وأنـا الحـاكم العسـكري ذو الأمـر المطـاع. المفـوّض، مـن مـولاي السـلطان، بالتصـرّف التـام بالعبـاد والبلاد. من يرد طلبي؟ من يرفض أمري»؟

ومع كل هذا (الهذر – المذر)، ظل محبطاً:

«........علـى الأغلـب أنهـا لـن ترجـع......... هـي لا ترغب، بي زوجاً. كما أن أهلها لا يخرجون عن عاداتهم وأعراف عشيرتهم وتقاليدها، التي يتمّسكون بها كالحديد»!

ثم يقفز ثانية، كالمجنون، عن كرسيه. وَيَلْكُم الطاولة، أمامه، بقبضته:

«سأحطّم رؤوسهم، وآتى بها، على الرغم، من أنوفهم، وأنا.... وأنا.... ».

وظـلّ يهـدر، بصـولجان قوتـه، كصـاحب «صـولة وجولـة»، عـن طريـق (الأطـواب) ـ المـدافع ـــ والبـارود، والجيش الجرّار. و.... «هم، يجب أن يتشرّفوا بمصاهرتي وبنسبي الكريم. فأنا، لو طلبت ابنة الوالي نفسه، لرضي بي صـهراً......... عجيـب...! عجيـب......! كيـف أُرْفَـضُ مـن رجل فلاح بسيط، من أبناء رعايا سلطنتنا المحروسة، ومن ابنته الأرمل؟.... ».

ثم يهدّئ روعه: «على كل الأحوال. عسى أن يكون في

الصباح رباح». وظلت جراحه تنكأ روحه طوال الليل. وظل معها يندب حظه: «يا لجمال ميثاء الغيداء! يا للنجمة في السماء! لقد فرّتْ من يدي، كحمامة بيضاء، وغابت بعيداً في حجب الأمداء..و...»!

كما ظلّتْ لعنة الرفض، من قبلها، و من قبل أهلها، تلاحقه. فلم يغمض له جفن، في تلك الليلة.

في الغدوة، قبل وقت الدوام الرسمي. كان موجوداً، في مكتبه، ينتظر، على أحرّ من الجمر. أخذ يسّرع من خطواته، وهو يذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً، يزفر النفخة الساخنة، تلوى الأخرى. كجمل محرور. ثم يضطرم أكثر في داخله: «كل اعتراض منهم غير مقبول... كل ذرائعهم مرفوضة.... كل... كل....». وجلس على كرسيه وهو (يكلكل). ثم اتكأ على الطاولة.

بعد قليل رفع رأسه. ونادى خادمه:

ــ «لا تدخل عليّ أحداً، في هذا اليوم، إلاّ هي...»

ــ «أمركم أفندم». ــ طاخ ــ دَقَّ الخادم الأرض بقدميه تحيةً. أخذ يتساءل هذا الخادم، بعد ذلك، مع ذاته: منذ أن قابلته تلك الفتاة الجبلية تغيّر مزاجه. رأساً على عقب. وعطّل

شؤون (الحاكمية) بتةً وانزوى كالمجذوم المعزول».

في واقع الأمر. تفرّغ هذا البكباشي الكسيف، لمراجعة قضيته الصعبة،مع تلك (الميثاء) المتمنعة عنه. والتي أحرقته بنيرانها. وكادت تقضي على رشده وعقله معاً. ينظر إليه الأردوناز، من خلال شق النافذة المغلقة، وقد تطاول على أصابع قدميه أكثر. يراه تارة جالساً على كرسيه. وتارة أخرى ينطّ عنه كنابض كبير.

«ماذا جرى، للقائد»؟

ثم يستمع إليه، وهو يحادث نفسه: «ما رجعتْ للآن. هذا موعدها قد أزف......آه......! لقد انفلتت مني. كما تنفلت قطاة من شراكها...و..... ».

يسرّع من فحج خطوه. وما زال يهمز وحده: «إذا لم تفِ بوعدها، سأدمر قريتها، وأبيد عشيرتها عن بكرة أبيهم، وآتي بها صاغرة صغيرة.......»

ظل دواليك في مكتبه المغلق، يهدأ حيناً، ويشحن هابّاً من جديد حيناً آخر. يثور كالبركان. كمرجل في أشدّ غليانه. يضرب الطاولة صائحاً: «مستحيل..... مستحيل أن يردّ، لي، طلب بالرفض......». والخادم يبتسم وحده ويرصده.

ثم يسترخي خائراً على الكرسي، ويدير في رأسه آلاف الأفكار. وفي مخيّلته آلاف الصور. بل ظهرت له الابتسامات المشرقة، والأحاديث الأخّاذة: «إذا ما عاملتك بالطيبة، تتمنعين يا ياقوتتي الجميلة؟ كوني وفيّة معي. ما هذه المقولات السخية، التي يتمسك بها أهلك: الشرف. الكرامة. العرض. العادات. الأعراف. و......؟ »

ويسمع الأردوناز منه، أيضاً: «آ.........ه! لو حجزتها وأبقيتها لدي....آ..ه! إنها أكثر مني ذكاءً ودهاءً وفطنةً. لاشك أنها كانت جد بارعة في كلامها. وفائقة في غنجها ودلالها... لقد فتنتني. وتركتني صريعاً، ثم نفذت مني كما ينفذ الماء،من عيون منخل............. »

ويراه الأردوناز، أيضاً، هائجاً أكثر: «سأنقضّ عليهم كالباز الكاسر. وأسحقهم وآسرها. وأسوقها أمامي كظبية تحجل بقيدها. آ........ه! لن أتعبها أو أسجنها. بل سأدعها، في قفصها الذهبي ـ قصري الثاني ـ تغرق فيه بترف النعمة، حيث النمارق من عسجد، والقاعات من بلور ومرمر. والتحف والأثاث، من كنوز مخازن سوق (الحميدية). وانعم وعشْ معها، يا ممدوح باشا. واقطف منها ورد أحلامك. و........ »

هكذا ظل هذا (الهمت) يتردد في أذني الأردو ناز بر هةً. حتى صار يشكّ في نفسه: هل جاءت فتاته، دون علم مني ويخاطبها؟ كيف دخلت هذه المخلو قة، دون أن أرا ها؟ أم هل انشقت الأرض عنها فجأةً في غرفة المكتب؟

ولكن تجابهه الخيبة. إذ يشاهد (معلمه) يتكلّم وحده. كما يتكلّم، عادةً، المجنون.

«الله يحفظ عقله». / قال ذلك، في نفسه. وأخذ يحرتق بمسكة الباب: «يا صاحب السعادة. يا صاحب السعادة، فنجان قهوة، أم كأس على كيفك؟».

استفاق ممدوح باشا، من ذهوله. وانتبه إلى ما وصل إلى أذنيه:

«هاتِ، يا أردوناز كأسين من (الثاني)......»

«أجل. يجب أن أخلد إلى الراحة. أووفتت! لشدما تعبت أعصابي وحزّقت.........»!

ثم شرع يكرع الكأس الأولى، من الخمر. وبعد لحظات. باشر في الكأس الثانية. هدأ نوعاً ما . ربّما أخذت الخمرة تفعل فعلها، في مسارب دمه. غير أنه صار، في الوقت ذاته. يعاني من ازدياد، تأثير ميثاء عليه. إذ رآها، في نفسه

تتوهّج ألقاً، أكثر من أي وقت مضى. فراح يتملاّها، على بريق النشوة اللعوب. تخيلها عروساً بجانبه، في عرسٍ سلطاني تارف. يقيمه في أبهى دارات دمشق. وقد طغت بجمالها على كل جمال نسوي في العالم!

عاد وتحسّس. جنوبه. لا يمكن، إنه يعيش في حقيقة واقعه. فها هي ذي بحلّتها البيضاء، وعلى رأسها تاج (الملكة العروس)، والطرحة البهية..... بلى لم يصدّق نفسه،وهو في اوج تخيّله الملتهب، إلا أن يجلس، بجانبها، في هذه الساعة مشخصّة حيةً. تبهره بضيائها. وتفعمه بفغيم عطر أنفاسها. ويا لأنفاس الريحان والفل والياسمين! تهبّ من شرشف صنعه نيسان بأزاهير الربيع. وطل الندى، وروح الصباح وشفق الفجر. و....

«يا....ه ! إنها، بقربي ولصقي شهية عذبه طازجة... (غندورة) لا مثيل لها بين نساء الأعارب والأعاجم. عسى ألا يشاهدها السلطان عبد الحميد نفسه، زير النساء في (يلدز). حتى تبقى معشوقتي لي، في الحلم واليقظة معاً».

* * *

الفصل التاسع

بعد أن زالت مخايل الخمرة. وأمّحى أثر ها، في نفس ممدوح باشا. عاد إلى را هن واقعه المر ير، مع هذا الشبق الجنوني، الذي أُصيب به. فوجد أن ميثاء، التي كانت بجانبه عروساً. قد تبخّرت. هزّ رأسه أسفاً عدة مرات......

فكّر: «يجب أن أ نذرها، قبل أن يحّل ا لدمار بقريتها وعشيرتها وجبلها».

نهض. وجد نفسه، فجأة، أمام المرآة المثبتة، على الجدار الشمالي. أف...! منذ الصباح لم يفطن بها. أو بالأحرى لم يفطن، بصورته المنعكسة، على صقيل بلور ها. السبب: ما غطّى عينيه من غشاوة. نظر إليها. وخاطب شخصه: «هل تليق صورتك هذه، كضابط كبير، لأن تقف عريساً، بجانبها»؟

ثم أخذ يتفقّد أعضاء ه، فيها، وتفاصيل جسمه،

وتقـاطيع سـحنته ووجهـه: الحاجبـان الكثـان مقوّسـان كسيفين قصيرين. العينان الواسعتان كفنجانين. الأنف الأقنى منقار صقر معقوف. الشارب الأسود مروّس بشمع عسلي. اللحية خفيفة ناعمة الشعر.......

سمات كلها ترشحه، لينال عندها الدرجة من (العال العال).

وبعد أن وثق، من سلامة شكله و(الخلقة التامة) في هيئته. إضافة إلى الطول الفارع. والقامة شبه المستقيمة. اطمـأنّ؛ أنـه يليـق بهـا حتمـاً. وإن ظـلّ يخـامره شـيء، مـن الشك، في هذا اللون الحنطي، الذي يغلب على صباغ بشرة الأتراك عموماً. «هل ترضى بي؟».

ولكن اقتنع في الأخير، (أن السمرة للرجال، والبياض للنساء). رفع نظره إلى أعلى الصورة، في المرآة. «أو...ه! رأس مجلّـل بالشـعر المهيـب، وقـد صـفف بعنايـة، كلبـدة الأسد!».

عـاد إلـى الطاولـة. ووضـع (القلبـق) علـى رأسـه. ثـم استبدله في الحال، بالطربوش التركي الأحمر. وجد وجهه قد أزهر. وصار مشرقاً. حرّك رأسه. فتحرّكت أمامه طرّة الطربوش الزرقاء، وشراشيبها. انفردت خصلة من عراها، والتصقت بمخمل الطربوش، من الجهة اليسرى. رَاقَ له هذا المنظر الرائع. فأصرّ على أن يبقى الطربوش على رأسه، ويمهل

(القلبق) بتاتاً. إلا أن تحين مقابلة الوالي، أو السلطان. أو أي ضابط أعلى منه رتبة. «نعم. نعم.. يجوز الزي الشاشاني العسكري بالقلبق لا ترغب فيه»-هي-ميثاء.

ثم انحدر بنظره، في المرآة. رأى البزة العسكرية. ذات الكتافيتين المرصّعتين بالنجوم. والصدر الموشّح بالأوسمة -(النياشين)-والبنطال الموشّى بخيوط طولانية صفراء، كخيوط من ذهب. دار على محوره عدة دورات. كأنه في معرض أزياء للرجال. وافق على «منظره». وأكدّ ثانية: «تماماً». ثم همس في نفسه: «أليق بها مئة بالمئة»!

ولكن ما ان هدأ قليلاً. حتى عاد، إلى شكوكه. وثار من جديد: «هذه الأنثى، كيف ترفضني؟ حتماً طارت من بين يدي. ولم أعد أرى لها وجهاً. ولا أثراً...».

فَشّ قهره بالخادم المسكين:

«يا عسكري، قارورة ملأى.... هيا أسرع....».

ثم أربكه بطيش حركاته، وبسيل طلباته العبثية:

«امسح الطاولة.... عدّل الكرسي.... اغسل الكأس..... ساوِ (القلطق)........ رتبّ الطربيزة....».

والأردوناز المطيع، ينفذ الأوامر، على مضضٍ. وهو

يتساءل، في داخله: «هل سيستقبل معلّمي الوالي بعد قليل؟ أم ملكة جماله»؟

وقلّص شفتيه، بشبه ابتسامة. بينما عاد وسمع صوتاً عالياً، مرناناً:

«ها هي ذي تخطو في الخارج... ». بَهَتَ الخادم. بل ذهل. وبخاصة عندما ربّت (الباشا) على كتفه، دون كلفة. وكررّ في أذنيه:

«اصغ إلى ترجيع إيقاع صندلها، على البلاط. إنه إيقاع سحري. كأنه آتٍ، من وادي عبقر...»!

ثم، أراح رأسه إلى الخلف، على حافة الكرسي. ليستكمل رنين أجراس مسامعه. وتصاوير مخايله: صعدت الدرج. وصلت القاعة الكبرى (العلوية). إنها لجد جذلى. ضحكتها تجلجل في ثغرها الريان. ولم يتلبّث، لينهض. ويفتح الباب، لها، بيده:

«تفضّلي، يا صاحبة...الـ.........»

ولكن أين امّحت صاحبة الـ....؟

هل غامت، في هالات النور من حوله؟ أم تلاشى طيفها الفتان، في غياهب الفضاء، بالحال؟

الحاجب، من ناحيته، لشدّ ما تأثّر، مما يجري أمامه: «القائد العام ممدوح باشا. يزداد جنوناً يوماً بعد يوم. بل ساعة بعد ساعة. بعد مقابلته ((لها)). فها هو ذا يغرق الآن في هذيانه، وهلوساته. وكرع أقداحه.... ثم اضطرب لفظه. في حلقه، وهو يتعتع. وعيناه تحولتا، إلى عينين مقلوبتين حمراوين، كبركتين من الدم... الله يستر! الله يستر! إنه على وشك أن يدخل البيمارستان....».

أغلق الباب عليه مشفقاً، ليتركه سارحاً، في عالم شطحاته. كما يترك نزيل، في مصح للأمراض العقلية!

* * *

الفصل العاشر

أُراني. وأنا أمايز، من مكاني الحالي، في هذه المضافة؛ الذي اتخذته لي مجلساً، بعد أن استفقت، في صباح اليوم التالي. وفطرت، من قبل ورثة الشيخ حسين الأطرش:

«تفضّل، يا أبا حمّاد. تناول فطورك».

أُراني أمايز. بل أستذكر، حين كنت جالساً، فيها، مع صديقي الحميم حسين الأطرش، أبي ميثاء. نفسه الذي كان يسرّ دوماً، لي، همومه ومشاكل قضاياه الخاصة.

فبعد أن سكب الرجل فنجاناً من قهوته المرّة المعهودة. تنهّد، وقال:

ــ «آ......ه ! يا أسعد الجندلي، للآن لم تأتِ ميثاء، كان خطأً جسيماً اقترفته أن سمحت لها بالذهاب إلى دمشق. و.....». / قاطعته:

ـ «ابنة حسين الأطرش. وكريمة (سميّة). لا يخشى عليها».

ـ «ولكنها تبقى أنثى، يا أبا أكرم. أنثى يا أسعد ». / وكرّر بوجع.

ـ «ميثاء فتاة محنكة. وذات فطنة. تقود عشرة رجال إلى الماء، وتعود، بهم دون شرب....». / وضحكتُ. لم ينبسط وجهه، ويجاملني بالضحك. بل ظلّ غارقاً في تفكيره. مكفهرّاً:

ـــ «ليتني متُّ ألف مرّة،قبل أن أذنت. لها بالسفر....إيبه! قلبي يغلي كمرجل فوق أتون.... كيف العمل، يا أسعد»؟

ـ «وَلْ....! وَلْ...! حسين خفف عنك. متى كنت رخواً هكذا؟ الضعف ليس دأبك. شدّ حيلك، واتكل على الله تعالى ».

ـ «والنعم من الله تعالى ».

ثم نهض يكردح، في أرض المضافة. لم تعد تتّسعه هذه المضافة. ولا قرية عرمان، ولا كل سفوح الجبل.......

ـ- «أوففتـ ـْت...! لو أستطيع أن أطير، كنسر، إلى دمشق. وأقف على أمرها ، وآتي بها....»!

ثم اقتعد الأرض. وأخذ يبسمل، ويحوقل. ويتلو بعض

الآيات من (الحكمة) الشريفة، و(القرآن) الكريم. شاركته ـ في نفسي ـ ببعض الأدعية، التي أحفظها. ثم رأيته يرفع يديه: «يا الله افرجها عليّ. كما فرجتها على يوسف الصدّيق، في الجب. يا الله. يا قريب يا مجيب...».

ــ «أبا ميثاء. اتكل على الله. من اتكل على مولاه كفاه».

صار ينفخ كحصان يشخر، بعد جري طويل، في سباق. كرّرت:

ــ «الفرج قريب إن شاء الله تعالى، يا أبا ميث......». / لم أكمل الكلمة. بل صرخت بأعلى صوتي:« ها هي ذي ميثاء، بعينها. تعبر الخوخة. يا حسين.......انظر».

ــ «بشّرك الله بالخير، يا أسعد».

وقف في باب المضافة. وهو لائب. أطلّ على ميثاء في صحن الدار: «كدت أندثر، من أجلك، يا ميثاء. كدت أندثر....». صاح بانفعال.وأوشك أن يغمى عليه. رافقته إلى مكانه وساعدته على الجلوس، كمريض خائر القوى. بعد أن جلس واستقرّ. تناول من جانبه، في ركن المضافة كتاباً مقدساً وقبّله بخشوع. ثم بسمل، وهو يخلّل لحيته بأصابعه ويمسّدها.

ميثاء من جهتها. صعدت الدرج الحجري، بكل تؤدة.

وعبرت باب المضافة. وغفّت على والدها، كطائر حطّ، من علياء السماء. وراحت ْ تقبّل رأسه، ولفته، ويديه.

أشرت إليها أن تتماسك. الوضع لا يحتمل إظهار العواطف. بعد أن استقرّت الحال، بقدومها. أدرت في بالي فكرةً: «أن أغادر المضافة، لتتصرف البنت، إلى إفضاء أسرارها، وهمومها الخاصة وما جرى لها، إلى أبيها». وتقلقلتُ، في مكاني لأنهض. عرفت ْ،هي، ما نويته، وقالت:

ـــ «ابقَ، معنا، عمي أسعد. لا سرّ يخفى عليك، في هذا البيت. أنت مقام والدي ».

ثم نطق الشيخ حسين، بعد أن استعاد روعه؛ ونقه مزاجه:

ـــ «أسعد. ابقَ هنا. لنعرف – أنا وأنت – (ما الخبر)؟ وتُعينني على ما ستدلي به ميثاء. آراؤك جدّ سديدة. ونستعين بها دوماً».

أجبته بنبرة ممراح مقصودة:

ـــ «إذن. اسكب لي فنجاناً و لميثاء فنجاناً».

ـــ «على رأسي ».

وبعد أن أثنى علينا بالقهوة المرة، قال:

ــ «هاتي ما عندك، يا أم سلمان. ولا تكتمي شيئاً».

وراحتْ ميثاء تحدّثنا عن كل ما حدث لها، وما جرى، بينها وبين ممدوح باشا. بصراحة وشفافية. تكلّمت به دون رهبة أو خشية. كانت هادئة متّزنة. كأنها ابنة سبعين سنة. طال وقت السرد. وكنا في أثنائه خائفين. نقبض روحينا. تارة. وقلبينا تارة اخرى. وتارة ثالثة نهمز بعصوينا اللتين أمامنا.أفاضت بالكلام طويلاً؛ عن مداورة هذا الضابط الغاشم، ورغبته الجموح، في الزواج منها،و......

ومن جهتنا:

«يا غيرة العرض والدين والشرف..و...........».

وبعد أن هببنا، أسكتتنا، باشارة، لمتابعة بقية الكلام:

«عناية الله جل جلاله، أنقذتني من بين براثنه. وكم تلوت، في نفسي وسرّي، آياتٍ حكميةً وقرآنية شريفة كريمة... وتمتمتُ أدعية استغاثة. وقبل الله مني صلواتي. وهو السميع المجيب القريب...». / ثم لهجت بحزن شديد:

ــ «بلى. بلى. كنت كشاة. أفلتت من ذئب....آه ! ليتني ما ذهبتُ إلى دمشق. خزى الله تلك المقابلة. وخزى الدنيا بكل حطامها. فوجه الله ذي الجلال، هو الأبقى، والأكفى...! »

شهقتْ نفساً طويلاً، وتابعتْ:

ــ «الوغد، لن يرعوي. بل سيتابع مشروعه الدنيء. سيطلب يدي منك، يا والدي حسين....إياك. إياك أن تقبل خوفاً عليّ. أنا أرفضه. وأنزع لحمي عن لحمه. إذا ما دُقّا في الـ(الهاون)....» / قاطعها أبوها:

ــ «لعينك يا بنتي. أنت شرفي. بل بنو الأعراف كلهم يحفظــون هــذا الشــرف المصــون. ويريقــون دمــاءهم تجاهه.....».

ثم قلت لها، بدوري:

ــ «ضعي يديك في ماء باردة، ابنة موحِّدة، لا تتزوّج، من أجنبي ولا من تركي، ولو أمحى كل الموحدين، عن بكرة أبيهم... لعينيك يا ميثاء».

وكدنا، أنا ووالدها، نعود إلى النخوة. وننزع عمامتينا، عن رأسينا الحليقين. ونرفعهما إلى الأعلى.

حقيقة، بعد هذه «الفورة»، من الحماسة. لم تعد الدنيا، في نظرنا، تساوي متليكاً واحداً. ولا قشرة بصلة.... على كل حال. عادت ميثاء، وأخذها، علينا، إشفاق. إذ هدأت أمامنا، والتزمت بهدوئها واتّزانها المعروفين. وما تتحلّى به، من خصال الحزم والإدارة. قالت مؤكّدة:

ـــ «يجب أن نحتاط، لغدر هذا البطّاش. ونحذر من ذرائعه وأحابيله. (والكلب تحزّم له بحزام السبع).......»/ وسكتت.

أجبتُ:

ـ «المقّدر من الله تعالى مقبول....».

زفرتْ كمية من الهواء الساخن: «بالمناسبة، أنا تنازلت عن حقوق ولدي سلمان. ولا أريد له شيئاً، من تركة المرحوم والده محمد... / شهقتْ، وتابعتْ:

«الله يكون، في العون لنا جميعاً، فيما هو قادم علينا....».

ثم كفتْ عن الكلام. وترقرقتْ دموع البكاء، في مآقيها. لقد عادت، في الحال، انثى. تتسلّح بالدمعة. قال لها والدها:

«كفكفي ما همى من عينيك، يا بنتي. نحن في حراسة الذي لا تنام عينه...».

كنتُ، في أثناء سكوتي. أدعو لها، في نفسي ، وأهمز تجاهها، بالتحية والتقدير. إنها تستحق، بجدارة، أن تلقّب، بفتاة عرمان:

ـ «أنتِ أصيلة، يا ميثاء. وبنت بيت أصيل وكريم».

ــ «شكراً، لك، عمي أسعد».

ــ «صون شرفك، إزاء ذاك الطاغوت. يعدّ، في الغاية من النبل، لدى بني الأعراف كافة.ونعتزّ به إلى أبد الآبدين»

ــ «هذا دأب كل فتاة معروفيّة بل واجب عليها»

ــ «يالعيون كل (المعروفيّات)...!

ثم نطق والدها حسين:

ــ «ما عاش.. ما عاش الذي يدنس عرضنا. وليسألوا، عنا، إبراهيم باشا في قبره....».

ثم مال ناحية ابنته. وطمأنها، بكلمات طيّبة.مؤكداً لها أنها لن تكون زوجة لذاك العلج. ولن تقع فريسة له. ولو سال الدم إلى الركب.أو «دعج من سطوح بيوت عرمان قنوات وميازيب... »!

بعد ذلك،نهضت ميثاء، من مجلسنا مشرقة الوجه، وضّاءة الملامح. مرتاحة البال.. هبطت الدرج، حيث مخدع أمها (سميّة). الأم، أولاً وآخراً ((مودع سرّ ابنتها)).

*   *   *

الفصل الحادي عشر

ظلّ ممدوح باشا مصمّماً على تحقيق مآربه. وكسر شوكة ميثاء. مهما كلّفه الأمر. ولو القيام بحرب ساحقة يجتاح بها جبل بني الأعراف. بالكامل.

ولكن عاد وتروّى في شأنه. يجب أن يستعمل النصيحة أولاً، مع أهل ميثاء وقومها. ويفاتحهم، في خطبتها. لعلّهم يقبلون. (ويكفون الشرّ). ولهذا، أحدث مشاورات. وأجرى اتصالات. ليتم هذا الزواج بالطريقة التي «هي الأسلم والأحسن... وإلاّ».

بيد أن كل مشاوراته ووساطاته سُفهت. ولم يبقَ معه،منها، إلا تلك «إلاّ». إذ حظّره كل من أصحاب المشورة والرأي. وقالوا له: إن هذا الزواج لن يتمّ. وليس له سابقة من قبل. لدى بني الأعراف:

ــ «لا جدوى ــ معهم ــ يا باشا، من كل هذه المساعي.

لأن طلبكم صعب المنال، بل مستحيل......»

ــ «نعم....نعم...... نحن نعرف أن البنت المعروفية. تتجرّع السمّ الزعاف، قبل أن تقدم على زواج من شخص كهذا».

ــ «إذن. ما العمل، يا يوزباشي صفوت بك»؟ / سأل (بطريقة عفوية) مساعده الضابط صفوت بك، الذي كان جالساً معه في المكتب. ليستعرضا الردود والإجابات.

ــ «العمل، فيما تختارون. أفندم».

«أي أنه، لا مندوحة لي، من تجريد طوابير العساكر، على الجبل؛ وتحطيم الرؤوس الكبيرة فيه. وأريح السلطنة من هذه (الشوكة) الضّارّة الكافرة».

أجاب صفوت بك: «ولكن لا ينسى سيدي البكباشي أن سلطنتنا العليّة. مربكة بحربها مع اليونان، في الغرب. ومع الصرب في الشمال. وفتح جبهة ثالثة......../ قاطعه ممدوح باشا بهوج، كمن جن جنونه:

«أنا، يا صفوت ــ ولم يذكر لقبه احتقاراً، وانزعاجاً ــ الذي يقرّر.... أنا الحاكم العسكري، والقائد العام، لهذه المنطقة. لقد تسلّمتُ هذا المنصب، بفرمان سلطاني....». / سكت، ولهج نفساً حاراً. ثم تابع:

«وأنا الحاكم الفردي، لجبل بني الأعراف. أأرفض. أن

أكون زوجاً لفتاة، من هذه العشيرة الــ..؟» وغصّ ببقية الكلام.

اليوزباشي صفوت بك، الذي كان يستمع إليه وهو مطرق. رفع رأسه. حينما رأى قائده يزوم مرة ثانية:

«أنا هنا ممثّل السلطان. ونائب الباب العالي. أنا الباشا على منطقة سورية الجنوبية برمّتها. يرد طلبي خائباً، لأكون صهراً لهذه العشـ..... ». وهَدَرَ أكثر:

«أأُركل بالرجل من قبلهم؟ وأُرمى، كحصاة تافهة، خلف الظهر؟ إيْــهْ...! لقد حقّ فناؤهم على يدي، ودون هوادة. صفوت..».

تابع:

«وميثاء نفسها سآخذها، بالقوة . عنوةً واغتصاباً. واجعلها في قصري محظية، مسبيّة. لا زوجة شرعية..... أوفتـْتْ...! قريباً، يا صفوت، ستراها هنا منكسة الرأس».

طامن اليوزباشي صفوت بك رأسه. ولم يجب قائده بكلمة.

* * *

من جهتنا، نحن أهل عرمان. أذكر الذي علمت به. أو ما شاركت فيه. أنه كان لذينك التهديد والوعيد. من جانب ممدوح باشا، حذر وحيطة، من جانبنا. إذ قمنا باستعدادات

ومساعٍ وقائية. منها أن دعونا أعيان بني الأعراف، في الجبل، إلىً اجتماع سرّ ّي. عقد بقرية (المجدل). تعاهد الجميع، فيه، على نجدة بعضهم بعضاً، في الحرب الآتية:

«تكون زوجته طالقاً، بالثلاث، الذي يتأخرّ، ويتقاعس، في المعركة....».

*   *   *

تلبّث ممدوح باشا، بضعة أيام، ليستحضر الذرائع، في تبرير حربه التي سيشنها، على بني الأعراف. لدى (السلطات العثمانية)، ويصل، بوساطتها إلى (غرضه الشخصي) – جلب ميثاء. أو سوقها مسبية صاغرة لتمثل بين يديه «حافية القدمين» –.

إذن، ما هي الفتيلة، لإيقاد النار؟ وإشتعال عود الثقاب في كدس الهشيم؟:

-– «يوزباشي صفوت بك. وصلتني أخبار (هوشة)، بين نواطير قرية عرمان ورعاة البدو المخيّمين، في خراج القرية. يجب أن ننتصر لهؤلاء البدو».

– «ولكن، أفندم، البدو، هم المعتدون! فهم الذين يغزون بني الأعراف. ويسلبون مواشيهم. ويسرقون أرزاقهم. و...».

غضب ممدوح باشا، من ضابطه صفوت بك. ضرب

الطاولة أمامه، بقبضة يده:

-ـ «البدو يحقّ لهم رعي الأرض. فهم أصحاب هذا الجبل الحقيقيون. وبنو الأعراف طارئون عليه. إذ توطّنوا فيه، على الرغم من أنوفهم، بعد أن رحلوا من جبلهم الغربي – جبل لبنان – إثر معركة (عين دارا) التي حدثت عام ١٧١١م. بين حزبيهم: اليمني والقيسي...أنت، يا صفوت بك. ضعيف الثقافة في التاريخ. وفي تاريخ هذه المنطقة بالذات». / وَمَرَزَ شاربه المقوَى بالشمع العسلي.

طامن صفوت بك رأسه. ولم يحر جواباً. بينما عاد ممدوح باشا، وتابع:

-ـ «وكان من مصلحة السلطنة العثمانية، التي، أنت تخدم، في جيشها المنصور، يا يوزباشي صفوت. أن تضرم الفتن كلما خَبَت بين البدو الذين تحوّلوا إلى رعاة. وبين بني الأعراف، الذي تملّكوا الأرض، في هذا الجبل الخصيب. وصاروا فيه فلاحين، مزارعين. وذلك من أجل إضعاف هذه العشيرة القوية العاصية على السلطنة.....».

عاد صفوت بك، وحرّك شفتيه:

ـــ «سيدي البكباشي، لنعد إلى هذه (الهوشة)، في قرية عرمان، إذا أمرتم، أفندم، فالذي وصل إليّ. هو أن رعاة

البدو، من قبيلة (الصفيان)، اعتدوا على مزروعات أهالي عرمان. وأتلفوها. لهذا ضُرِبوا وأُهينوا، من قبل نواطير القرية، المكلفين بحماية المزروعات فيها. و....... ». / قاطعه ممدوح باشا، بغضب شديد:

«كفى... لا تكمل. ضابط ثرثار. لا يليق في خدمة (المعّية)... انصرف. وآتني باليوزباشي مشرف آغا...».

ثم؛

«نعم، سعادة البكباشي ممدوح باشا »؟

«كنْ،يا يوزباشي مشرف آغا، على رأس مفرزة مؤلفة من ثلاثين عنصراً. وأذهب بهم إلى قرية عرمان بجبل بني الأعراف. واسجن النواطير، استعمل كل أنواع الظلم العثماني. دمّر الأرزاق. واقضِ على المواشي. وليكن مساعدك الشاويش (عبده أفندي)...».

«حاضر. أفندم».

«لا تنسَ تدمير أرزاق حسين الأطرش. ثم سوق ابنته ميثاء بالذات إليّ ... هَــهْ...!».

«أمركم أفندم ».

«هيا انطلق».

* * *

الفصل الثاني عشر

نعم. كما كنت قد تكلّمت:

لقد وصلت تلك المفرزة، إلى قرية عرمان. وحلّ أفرادها – الجنود والضابطان: مشرف آغا وعبده أفندي ـــ كضيوف (ثقال الدم، ظلاّم) على الأهالي (المعازيب). إذ تنافسوا في الطلبات الباهضة، والنفقات التي يعجز «الناس عن تقديمها»:

ـــ هاتِ عشر ذبائح من خِرفان مسمنة، يا (محمود أبو خير).

ـــ جئنا بعشرة أمداد، من الحنطة المصوّلة، كعلف للخيول، يا صالح الحلبي.

ــــ يا خليل الجرمقاني عليك تقديم عشرين مدّاً من الشعير للخيول.

ــ يا......... . يا..................

أوامر قاسية. لم يعتدها، من قبل، أهل عرمان. ولا بنو

الأعراف، في التعامل مع الضيوف. أو مع (العسكر)!

وفي اليوم الثاني. بعد أن زَمَرَ البوق، لاجتماع الجنود في الساحة العامة. كانت إيعازات التشديد الغاشمة تتلى، كقذائف مدافع:

ــ جنود، انتباه........

ــ سلام خذْ........

وبعد أداء التحية. تابع الشاويش (عبده أفندي)، على جنوده:

ــ أوامر قيادية.

تعالى صوت جمعي:

ــ جاهزون، للتنفيذ، أفندم.

ــ سعادة اليوزباشي مشرف آغا. يطلب حرق الأثاث وتدمير المزروعات. وتكسير (كواير) تخزين المؤن، وخلط الحبوب، ببعضها بعضاً، والتنكيل بأصحاب الدور، بأشدّ الوسائل. هيّا انصرفوا.

وفي مضافة (المعزّب) الشيخ (محمود أبو خير). عقد اليوزباشي مشرف آغا مع مساعده عبده أفندي اجتماعاً:

ــ للآن، لم يطلبوا الأمان والاستسلام، يا (عبده). ولم يأتوا بالنواطير المطلوبين؟

ــ سعادة اليوزباشي. هذه عشيرة، عرفت في تاريخها بالعناد و(كبر الرأس)، أفندم.

ــ بلى. و هذا شيخهم حسين الأطرش، ما زال مصرّاً على عدم مصاهرة البكباشي ممدوح باشا. على الرغم من مفاتحته، بهذا الخصوص عشر مرات.

ــ يقال إنه أخفى ابنته في مكان مجهول، بل استغورها في بعض. الكهوف. أو المغاور، في ظهر الجبل أفندم.

ــ إذن. فلنضغط أكثر،

وإزاء هذا الضغط. صار أهل عرمان (يبلعون بريقهم أكثر). ولكن العقلاء كبار السن منهم. بذلوا جهداً مضنياً في كتم كلامات التذمّر والغضب، التي احتشدت على أطراف الألسن لدى معظم الناس.وفي تهدئة خواطر الشبان، بصورة خاصّة.الذين كانوا يفورون غلياناً، كالمراجل.

إلاّ أنه في الأخير طفح الكيل. و(بلغ السيل الزبى)، لدى الجميع:

ــ يا خليل الجرمقاني. هذا البطش لا يطاق: أفا ضوا الماء على البيت. وأصبح مستنقعاً!

ــ يا عمي حسين ،أنبقى خا مدين كالنار المطفأة؟ متى

كان بنو الأعراف يسكتون على الضيم؟..... أحرقوا الزرع. وقتلوا الضرع. وأتلفوا العنب في الكروم....

ــ ياعمي حسين، لم يبقَ عندي ذرّة طحين.....

ــ يا أهل عرمان، متى كنا هكذا؟.....لقد شممنا بارود المعارك ودخان (البومبات)، أكثر مما شممنا ورد الربيع و....

يردّ الشيخ حسين الأطرش على المعترضين من رجال قريته،بكل توءدةٍ وأناةٍ، كرجل حكيم. وهو يسمّر عينيه، في الأرض، وقد استبد به الحنق المكظوم أكثر، وأكثر.....

على كل حال ،للآن ما يزال هذا الشيخ الروي يصدّر على عدم (فتح الشرّ)؛ على ذمته:

ـــ يا جماعة الخير....هؤلاء ضيوف. و الضيف معروف كيف يعامل عندنا نحن بني الأعراف. و....

-لقد خرجوا يا شيخنا عن كل التقاليد في الضيافة: عسف وظلم ونهب وحرق.وحجز الأطفال والنساء. و....

ــ متى كنا خانعين هكذا، ونحن (الزغابة). وقد نسينا مذاق الدموع المالحة منذ الطفولة......

وهكذا تحدث طويلاً أهل عرمان، عن هذه الضيافة العجيبة التي حلت في قريتهم. وعن المخازي التي اقترفها عناصر

المفــرزة التركيــة. (جندرمــة) فــي حــوران لــم تفعــل سوءاتهم. و مع هذا ظلوا(يكفون الشر).غير أن السّبب ا لذي أطلق شرارة المعركة. وألهب (برميل) البارود،بين الفريقين. هـو أصـطدام آمـر المفـرزة نفسـه،اليوز باشـي مشـرف آغـا، بالشيخ (محمود أبو خير). وكان توجيه تلك (الإهانة) له من الضابط التركي. وحدث ما حدث، في ذاك اليوم – (العرماني) المشهود.

* * *

ممدوح باشا، في دمشق. كان يترقّب أخبار مفرزته السارّة. وما ستحمله، له،من أنباء النصر. وأنباء أخرى. تفرح القلب، بصورة خاصّة. تكون أكثر سروراً. بل تضفي عليه سعادة ما بعدها سعادة، ولا تقابلها أمجاد النصر أيضاً. وهي أن تـأتي ميثاء مع مشرف آغا، راضخة، في نهاية مطافها. ولتخضع بين يديـه وتلـثم الأرض عنـد قدميـه، كجاريـة، مـن جـواري أيـام زمان....

ولكـن الجنـدي الكـردي الهـارب الوحيـد، مـن عناصـر المفرزة. نقل إليه الأخبار السيئة. جفّ لعابه، في حلقه. وأصرّ على الانتقام بــ «الشرّ العظيم».

أمّا، في عرمان. فأذكر أنني كنت من المشاركين – (بعـد مذبحـة المضـافة) – بالمظـاهرات، والعراضـات والنخوات.

احتفاء بهذا النصر المبين. فلوّحنا بالعمائم البيض إلى الأعلى، وبالهراوات والعصي. وزغردت النساء لنا. وميثاء نفسها. (هاهت) زغرودة النصر. كانت طويلة النفس بها. وقد أمنت، حقيقةً، شرّ ذاك (الضابط اللعين، وتخلصت من زواجه المشين، إلى أبد الآبدين).

....

ممدوح باشا، بعد أن أنهى زمجرته، بما أرغى، وبما أزبد. وَرَعَدَ وهدّد:

«سأمحق هذه القرية عن وجه الأرض... سآتي بميثائها مربوطة بذيل بغل حرون... سأدمّر.... سأحطم.... ». جهّز لكل ما صمّم على أن يفعله، بأهل عرمان، جيشاً عرمرماً. زوّده بأحدث الأسلحة المتطورة (آنذاك)، من بواريد (أم زلاقة،وأم ولاّعة....) وطبنجات، وغدّارات و.... والأهم من كل ذلك (الطوبات) ـ المدافع ـ وأمره بالزحف، إلى جبل بني الأعراف. وأذكر أن ذلك حصل، في أوائل تشرين الثاني، من عام ١٨٩٦م. كما أجدني، الآن، استرجع، بذهني، تلك المعلومات التي وصلت، إلى أهل عرمان عن هذا الجيش الجرار. عندما كنا مجتمعين، في مضافة شيخنا أبي ميثاء حسين الأطرش. وذلك حين وقف، بجانبي – أنا أسعد الجندلي ــ ابن عمي فرحان الجندلي. –

وكان عيذنا، في رصد تحركات (قوات) ممدوح باشا – وقال:

ــ يا أهل عرمان هذا الجيش الكبير مؤلف من أربع كتائب مشاة. ومن كتيبة فرسان (خيّالة سواري)، و....... / قاطعته شخصياً؛ وكنت في عجلة من أمري:

ــ هل ممدوح باشا يقود هذه الحملة بنفسه، يا فرحان؟

ــ هذه القطعات العسكرية، يا بن عمّي أسعد. هي بقيادة الضابطين التركيين: غالب بك، ورضا بك. هكذا علمت من العسكري الذي نقل إليّ هذه المعلومات، عن جيشه. بعد أن نقدته في العتمة خمسين قرشاً. ثم تركني والتحق بقطعته المتمركزة قرب قرية (مردك) باتجاهنا.

تنهد الشيخ حسين الأطرش:

ــ الله يفرجها علينا.

نطق الشيخ قاسم الحمدان، من جانبه:

ــ الله حق. وينصر الحقّ. ونحن لنا شفيع عنده. جلّ جلاله. لا يتخلّى عنا. طالما أننا على عهدنا معه، أن نبقى على الحق ولا نعتدي – هكذا أوصانا – فكونوا يا بني الأعراف مطمئنين ولا تخافوا...

ثم تسلّم (سكة) الكلام سعيد سالم، وقال:

ــ فلنتكل على الله تعالى يكفنا شرّ المعتدين. هذا من جهة. ومن جهة ثانية، فإن كل جنود ممدوح باشا، لا تساوي قلامة ظفرٍ، من فتاتنا، رمز كرامتنا وشرفنا.......

وعلا ضجيج. ثم انفرد صوت سليمان شهاب:

حرّكوا (المفازيع)، إلى صلخد، وامتان، وملح، وبقية القرى المجاورة لعرمان. قبل وصول الجيش التركي........./ أخذ نفساً واستأنف:

ــ وسنلقن ممدوح اللعين درساً، سيظل يذكره دوماً.

ابتسم فرحان الجندلي، الذي ما زال بجانبي:

ــ على هونك يا شيخ سليمان. على هونكم يا أهل عرمان. كنت قد اتصلت، بدليل الجيش ومرشده (سليم الجاري). وهو رجل، من أهل الجبل. تطوّع بالجيش ليعيش. يعرف تضاريس الجبل جيداً. وطلبت منه أن يتيه بالجيش الزاحف. ويطيل مسيره، بين الهضاب والأودية. لريثما يتمّ التئام حشدنا. ثم «عليهم يا نشامى، يا غيرة العرض والدين»....... بل هذا المسكين الذي كان واقعاً بين نارين: نار خيانة قومه. و نار خيانة جيشه. فقد اختار «الخيانة» الثانية......

وضجةٌ علت:

ــ والله فضّلت بمعروفك، يا فرحان الجندلي. هذه شيمتك.

من جهتي انتفخت أوداجي بصنيع ابن عمي. ثم سمعته يقول:

ــ شكراً، يا شيخ اسماعيل الدبس. وما قمت به إلاّ اليسير من الواجب تجاه قريتي وعشيرتي.

*   *   *

قاد سليم الجاري جيش ممدوح باشا، في متاهات سفوح جبلنا. ومسالكه الوعرة، ذات المراس الصعب في (المشي). ظل يطلع تلعةً. ويهبط وهدةً. يصعد هضبة. ويحدر حفرة، مدة لا بأس بها. كان قد ارتاح ضميره، حين التقى ابن عمي فرحان، ليبلّغه أخبار الحرب ووصول الجيش، ليتخذ بنو قومه الحيطة والحذر. لقد جاءه كالمنقذ. حتى لم تتملّكه فرحة، في حياته مثل هذه الفرحة –على حدّ تعبيره –

في حقيقة الأمر كان هذا الرجل قبل أن يلتقي فرحان الجندلي، قد أصابه تبكيت عنيف. حزّق عليه ضميره، حين كلّفه ممدوح باشا بهذه المهمة:

ـــ «يا أونباشي، سليم الجاري، أنت عنصر من عناصر جيشنا الباسل. تطوّعت لا لخدمة بطنك. بل لخدمة السلطنة العثمانية السنية. أندبك لتكون دليلاً ومرشداً، لجيشنا الزاحف إلى جبل بني الأعراف....».

ــ «أفندم، سيدي، أنا من......».

ــ «لا تكمل. إنه من غير اللائق في السلوك العسكري أن يجيب المرؤوس رئيسه . بل عليك بالسمع والطاعة، دون كلام، يا سليم، ولي ثقة بك أن تقود جيشنا، في أسهل طريق، وأقربه، للوصول إلى قرية عرمان. وسحق أهلها المتمّـردين الخـارجين عـن القـانون.........أ........؟..أ...؟ دونك هذا الكيس، وفيه خمسمئة ليرة ذهبية رشادية......».

ــ «أمركم أفندم».

لم ينتبه الأونباشي سليم الجاري، للذهب الرنان، بين يديه. بل خاف من حبل المشنقة أن يزرد على رقبته. وقع في حيرة وغاص في أعماق أفكاره؛ وهو ما بين فكّي كمّاشة ضاغطة، بل قشّة قرّام، في مهب الريح. لا يقوى على تثبيت ذاته. ما العمـل؟. أمـران كلاهمـا مـرٌّ: المـوت صـعب. وخيانـة قومـه أصعب.

وبعد بذل جهدٍ ذهني. تنسّم آثار عقله. فانبلجت. في كيانه الداخلي قوّة نورٍ فائقة. كانت كناية عن صحوة ضمير فعّالة. فصمّم، فـي تلـك الليلـة الليـلاء، أن يتغلّـب علـى ظلمـة نفسـه، واختار خديعة «العسكر)): هؤلاء أوباش، لا أخلاق لهم. فلن أرشـدهم كطغـاة إلـى قتـل أهلـي وأبنـاء عشـيرتي. والنيـل مـن شرفهم وعرضهم وكرامتهم. هذا لا يجوز من شهامتك يا سليم

الجاري.../. خاطب نفسه وصمت، ليأخذ نفساً لاهجاً، في العتمة الدامسة، مستذكراً شمائله. واستأنف:

«سأرمي هذا (الكيس) المملوء بالذهب. أو سأخبّئه في نقطة علاّم معينة. وشرف ميثاء الأطرش، عندي، فوق كل اعتبار. ولن أبّدل شعرة من رأسها، بأموال الدنيا وذهبها... هي عنوان مجدنا. ولن يرضخ بنو الأعراف لغاصب، أو لمنتهك كرامتهم. ولو سال الدم سواقي، من سفوح جبلهم....»!.

ثم غصّ، وهو يستعرض الواقع الرهيب: «الله جلّ جلاله، يفرجها عليّ وعلى قومي، وهو السميع القريب المجيب...».

وظلَّ يصيخ السمع. وهو يهدج، في مقدمة العسكر... هَه! ثمة خشخشةٌ:

ـ «من......؟ صاحب، أم......؟».

ـ «بل، صاحب طالما أنت تتكلم العربية، يا صاحب الصوت».

ـ «من أنت.... أيها العربي»؟

ـ «أنا فرحان الجندلي، وأنت؟».

ـ «أنا الأونباشي سليم الجاري. قل ما هي مهمتك، يا فرحان»؟

ـ أتثق بي يا سليم؟

ـ نعم يا فرحان.

ـــ «أنـا (عـين) بنــي الأعـراف، ورسـول قريـة عرمـان، وأنت»؟

ــ «أنا مرشد الجيش ودليله في أرض الجبل».

ثم اقترب الرجلان. تعانقا وتعاهدا: «بلـّغْ، يا فرحان، بـني قومي عما أعلمتك به، وليتدبّروا أمرهم بالسرعة القصوى».

ــ «وأنت، يا سليم»؟

«سأقود الجيش، في مجاهل الجبل، ومتاهات مسالكه الوعرة، حتى يطول الوقت».

ــ «طوبى لك وألف طوبى، أيها المعروفي الأصيل».

*   *   *

لم يعد سليم الجاري، الأونباشي في الجيش التركي. جيش ممدوح باشا، بعد أن استعمل نخوته وحميّته تجاه بني عشيرته. لم يعدْ مكدوداً، ولا مكموداً. أخذ يسير بـ(العسكر) في غياهب الظلام الدامس، بين وهاد ومفاوز. لا يرى فوقها غير بقعة من «قبة السماء».... يتمتم: «جبال من الملح، لا من الصخر، ذابت عن ظهري. وانزاحت عن كاهلي. سأطيل وقت المسير، حتى يتّم لبني قومي استعدادهم واستكمال (مفازيعهم)، إزاء هذه الحرب الظالمة القادمة عليهم. حرب

غاشمة ضروس ستغشاهم، على حين غرة. يا ويلتاه! ماذا سيحلّ بهم، إذا ما هوجموا، وهم في غفلة من أمرهم....»؟

وراح يتخايل في داخله، مع عتمة الليل الحالك. ويتقزّز، من مناظر الجثث، التي تترى وتتراءى له مجندلة، من الشيوخ العجز، ومن النساء والأطفال...«هذه امرأة تعول، وقد شدخها سيف باتر. وذاك شيخ يدبّ على عصاه، يُركَلُ من الخلف، بسطار ضخم. ثم يحزُّ رأسه كخروف في مسلخ. وأولئك جمهرة، من الأطفال. قد ملؤوا الدنيا صراخاً واستغاثة. و........ ». ويثور أكثر، حين يتمارى في الظلام، المضافات التي تتهدّم، بقذائف المدافع من نوع (البومب) الكبير. وقد انسملت بأتربة السطوح وحجارة القناطر، دلالُ القهوة المرة، وحبّ البن المحمّص. ومناسف الولائم، و(الكرمات). وطناجر(المليحية)، والبرغل واللحم. والأثاث من الفرش والبسط والسجاد، و...

وتسائل كثيراً، أين سيحلّ، بعد ذلك، الضيفان، من الطرّاق القادمين، في حندس الليل، من بوادي الأردن. وفلوات العراق والشام؛ وقد تهدّمتْ تلك المضافات. ثم سمع، وهو غارق، في صور مرآته الداخلية، ورؤى ضميره، صوت (المعزب)، ذاك الرجل المعتمّ بلفّته الشاشية البيضاء، وهو يستقبل ضيوفه: يا أهلاً وسهلاً، بالطارقين. تفضّلوا،

اجلسوا، حيّاكم الله! و يراه يقفز أمامه، من خلف ذقرة النار، لطبخ القهوة المرة، راشداً ضيوفه إلى مكان جلوسهم...

ويرمع سليم الجاري بأنفه. كأنه ينشق حقيقةً عبق رائحة القهوة، التي يسكبها المعزب بالفناجين، شقراء كالشهد. يتلمّظ شفتيه ويشرق بلعابه، وهو مازال يتابع سيره المتعثّر بالجيش. يقطع تعاريج الطرق الوعرة، صاعداً هابطاً في الشعاب والأخاديد، في القلال والتلال. يجب أن تطول المسافة معه إلى (آخر الكرة الأرضية). يقنع ضابطي (الحملة):

ــ «يا سعادة اليوزباشي غالب بك، نسير الآن في هذا الليل، بأقصر طريق أعرفه وأخبره عن تجربة».

ــ «يا سعادة اليوزباشي رضا بك هذا هو الطريق الأقصر الذي يصلنا بقرية عرمان....»

* * *

أخيراً، وصل الجيش العثماني،المنهك من سير الليل، ومن التخّبط في المسالك الوعرة الطويلة. وصل إلى القرب من قرية عرمان، من جهة الغرب. والدليل الأونباشي سليم الجاري. ما يزال يهدج في المقدّمة، نحو نقطة علام معروفة توقف قليلا، فلاح له شبح في غبشة العتمة. وثمة كلام

هـامس سـري للغايـة:. «يـا فرحـان الجنـدلي.بلّـغ أهـل عرمان ومفازيع القرى أن يكونوا في (خراب عيون). يجب أن يكونوا كثرةً ولا يكترثون لأقاويل الذين يخا فون الحرب والمصادمة. هذه معركة شرف وكرامة...هَهْ!»!

ضيّق فرحان الجندلي عينيه كخرزتين، في الظلام كما تفعل الهررة، ليرى (مخبره). ثم همس: «سننفذ ما رسمته لنا من خطة قتال يا سليم....بخاطرك.... ». وتلاشت خشخشة قدمين بالحشائش والأعشاب. بعد أن بدّدتها الريح الشرقية.....

ثم: «يا أهل عرمان الشجعان ،ومفازيعهم النشامى. علينا أن نتلبس الصخور والحجارة والجدران في (خراب عيون). با نتظار قدوم الجيش».

أبلغ فرحان الجندلي (الخبر). ونزع حذاءه المترب، في عتبة مضافة حسين الأطرش ثم طلب وجبة عشاء، ليحصّن جسمه، بدوره، للمعركة. قال حسين الأطرش:

ـــ «علينـا أن نـذهب إلـى (الخـراب) فـي هـذا الليـل. والبيرق. يجب أن يخفق فوق رؤوسنا.....».

أجابه فرحان ، وهو ما يزال يلوك لقمته:

ـــ «ويجـب أن نـزور مقـام الخضـر (ص)، فـي أثنـاء طريقنا، إلى الخراب».

فانبرى رجل عجوز يدعى غانم الفاعور يشجّع المجتمعين وهو يلوح برمحه المبتور: علينا الذهاب فوراً بعد الزيارة، ونستحكم للعسكر خلف المتاريس من جدران الخراب. ثم الانقضاض كرجل واحد.دون تردّد أو تخاذل.... ولعيني ميثاء....!

وجرتْ شبه مظاهرة في المضافة. إذ هاج الجمع الحاشد. ثم غيّبت العتمة الدامسة أشباحهم.............

* * *

بالمقابل.

كانت مشاورات، بين الدليل الأونباشي سليم الجاري وضابطي الحملة: غالب بك، ورضا بك:

ــ «دعنا نبتْ في هذه (الخربة). سيدي اليوزباشي رضا بك...نعم. ثم، يا سيدي غالب بك نهجم في الصباح على قرية عرمان القريبة من هنا. وندهم أهلها، وهم في حلاوة نومة قبل الفجر».

نظر رضا بك، نحو جهة غالب بك، بعينين شبه مغمضتين، من شدّة التعب والنعاس:

ــ «ما رأي اليوزباشي غالب بك»؟

ـــ «الراحة للجنود قبل القتال. أمر إيجابي في المعركة، يا رضا بك. والقتال الليلي، ليس في مصلحتنا، في هذه المنطقة المملوءة بالصخر والوعر........».

ـــ «كما تريد ».

ثم ألقيت الإيعازات العسكرية، في التّوقف والمبيت. وهكذا راح كل جندي يسير لنومه مغتبطاً. كما لو أنه مهر طليق أفلت في هذا الخلاء. وبعد أن انتشر الجنود، على مهاد الخربة. تخفّفوا،من الألبسة الثقيلة. والأسلحة الفردية. وأخذوا يكرعون أقداح الشاي. ثم إيعاز: «إلى البطانيات والنوم ». وراحوا يغطّون في سباتٍ لذيذ عميق، بعد مشاقّ سير صعب. لم يصادفوا مثله، في حياتهم.

عقب بدء سكينة النوم هذه. المتوافقة مع سكينة الليل. كانت المفاجـأة العظمـى، التـي مزّقـت حرمـة السكون الوسنان، فـي (خراب عيون). ففي الوقت المناسب، والمكان المناسب. انطلق زئيـر مـدوّ، كزئيـر النـار اللهّابـة، مـن كمـاة بنـي الأعـراف، المنقضّـين، كالصـقور الكواسـر، علـى (العسـكر). إذ نَبَـقَ المقاتلون، من خلف كل صخرة. ومن وراء كل جدار.... من أيـن نبعـت الرجـال؟ لقـد حلّ الـذعر والرعـب والقتـل بـالجنود. وعمل بهم السلاح الأبيض الفردي ما يعمل الجزّارون بالنعاج المعدّة للذبح...!

ــ «عليهم النشامى... حسين، يا عضيدي».

ــ «ابشر، أبا سالم. جئتك بصارمي البتّار».

ــ «انتبه إلى يمينك يا مسعود».

ــ «هَـهْ....! هَهْ...! سأقطع رأس ذلك العسكري».

ـ- «لا. يا أبا هائل. بل ابقِ رأسه على جثّته ودعه يهرب».

ــ «عسكري. اترك سلاحك وانج بروحك».......

الجندي المرعوب. دفعته غريزته البدائية ليرمي سلاحه ويهرب.

وهكذا. صار المقاتلون يجولون، بعد ساعة، فوق أرض مقدّسة. كانت قد غسلت بالدم أكثر من مرة. والجنود يفرون من أمامهم. وقد فقدوا السيطرة على نفوسهم. في حالك هذه الدهمة المباغة. واحتجزوا مثل الدجاج في القن...

ثم تتابعت أصوات أخرى، تتعالى: لله درّك، يا سليم الجاري! سلمت يمينك، يا أمين على بني قومك...

« هذا النصر الكبير يعود شرفه وفضله، لك، يا بن الجاري».

وعاش مقاتلو بني الأعراف بضع ساعات، في غمرة النصر. وسكرة المجد. إذن (وقع عسكر ممدوح باشا، في شرك يشبه شرك طير الحجل، في هذا الجبل....)

ولكن هل يستمر هذا (الزهو) في النصر؟

ثمة قوانين في هذا الوجود، تفرض نفسها، على بني البشر، في القضايا الكبرى. تكون خارجة عن الإرادة الإنسانية. فكثرة العدد، والصمود في المعركة، يقرّران، في النهاية، مصيرها.

أجل. لم يرضخ، لهذا (الفوز) الأولي، ضابطا (الحملة) العثمانية: غالب بك. ورضا بك. ولم يعترفا بالهزيمة والانكسار. بل أخذا جنودهما بالزجر والحثّ على الثبات. واجبرا، بالتالي، الهاربين، منهم،إلى العودة لصفوف قطعاتهم. ثم تمكّنا، بجحافلهما من التماسك، وامتصاص آثار الصدمة. وحين أشرقت الشمس وأضحى النهار كان الجيش التركي، قد استعاد توازنه. واستلم زمام المبادرة في المعركة. وأخذ يستخدم، جميع صنوف الأسلحة (النيرانية) التي بحوزته. ولا سيّما منها المدافع ـــ الطوبات ـــ ذات (البومبات) المدمّرة. التي راحت تدوّي أصواتها معرّدةً، على مكامن المقاتلين. بلى، كانت ردة فعل شديدة وعنيفة، من جانب الجيش التركي. لم يصمد إزاءها مقاتلو بني الأعراف، ولو تحلّوا بالشجاعة. فتراجعوا وانكفؤوا على أنفسهم بعيداً، تاركين ساحة المعركة،ميّممين شطر القرى.

كانت شمس هذا النهار الدامي، قد صعدت سدرة جبهة السماء. ولم يبقَ من آثار المعركة، سوى مناوشات بسيطة.تعيق سير الجيش عن الزحف إلى عرمان مؤقتاً. وأصبحت في حكم (القرية المحتّلة ـ عسكرياً ـ) والمهّدمة بيوتها، والمكبّلة فتاتها ميثاء، لتمثل عما قريب أسيرة، بين يدي غريمها ممدوح باشا.

أجل. مالت الشمس، عن قبّة سمائها. وما زالت كفّة ميزان المعركة راجحة لمصلحة الجيش التركي. تقهقر بنو الأعراف. بعد أن فقدوا الكثير الكثير، من مقاتليهم البواسل الأشداء. نعم فقدوا سبعين شهيداً من صلخد وحدها. وكلٌ منهم فارس همام. وهذا الرقم كبير جداً، بالنسبة لقلة رجال بني الأعراف. إذن. كان الأولى، ببقية المقاتلين، أن يولوا الأدبار. ملبّين نداء غريزة الحياة. في حب البقاء. وليختبئوا في البيوت. وكأن كل مغوار منهم اختار ذلّة النجاة. الأمر الذي جعل نساءهم يغتظن. ويصّممن على البقاء في ساح المعركة وحدهنّ. حيث كنّ خلف صفوف رجالهن يقدمّن الماء والطعام، ويضمدّن الجراح للمصابين. وكذلك وصل (خبر) الهزيمة للنساء اللواتي كنّ قابعات في البيوت. ينتظرن أنباء النصر المؤزّر، وحسم المعركة.

ميثاء نفسها،هُرِعَتْ من دار أبيها، إلى دار خالتها، من آل ملاعب:

ـ ـ «يا خالتي سعدى. سيهان شرفنا، ويُمزَّق عرضنا شرَّ ممزق.... سيصبح كخرقة بالية اليوم..». / قاطعتها خالتها سعدى:

ــ «ما الخبر، يا بنة أختي»؟

ـــ «رجالنـا تركـوا المعركـة وانـدحروا منهـزمين. والجيش زاحف إلينا. سنقع سبايا بين أيدي الجنود الطغاة.... ». / قاطعتها بانفعال:

ــ «ماذا تقولين، يا (طرشانية)»؟

ـ ـ «لقد انكسر بنو الأعراف. وهاهم يتراجعون إلى الخلف، وتركوا الأرض...».

ــ «صـَهْ....صـَهْ.... يا خبر الشؤم الذي فهتِ». رَدَّت سعدى ملاعب على ميثاء كالمجنونة. لقد طاش صوابها من الخبر الصاعق. وكانت هذه الـ (سعدى)، امرأة كهلة، سمينة نوعاً ما. ذات وجه أرجواني مقشور. ومن عادتها أن تتلفع بشال. وتضع تحته قطعة من السلاح كالرجال. عُرِفَتْ في عرمان. بالشجاعة. وقوّة الجأش. الموت لم يرهبها. بل عشقتهُ عشقاً، لخلاص روحها. وهذا هو سرُّ شجاعتها...

صاحت على ميثاء: «أين بقية الخيول عندكم»؟

ــ «في الاسطبل، يا خالتي».

ــ «تقلّدي بحلة الفرسان وسلاحهم واتبعيني».

* * *

اعتلت الفارستان: سعدى ملاعب وميثاء الأطرش صهوتي جواديهما، من خيول حسين الأطرش العربية الأصيلة بعد أن تسربلتا بسلاح القتال، كما يفعل الرجال، من بني الأعراف...

«هيّا ميثاء، لنسرع خبباً...».

وحينما أقبلتا،على شرائد المقاتلين الهاربين. صاحت سعدى بهم بأعلى صوتها الخشن الذي يشبه صوت الرجال: «انزعوا عن رؤوسكم الكوفيات والعمائم يا رجال بني الأعراف. فنحن النساء أولى بها. وخذوا منا (فوط) الشاش. فأنتم لها وهي لكم، بعد هذه الهزيمة الذكراء... ». / أخذت نفساً وهي على صهوة جوادها الذي كان تحتها يعضعض لجامه «كيداً». ثم تقدمت إلى جانبها ميثاء على ظهر حصانها، وشدّت من شكيمتها، فثارت (سعدى):

«أتهربون،يا جبناء وتتركون عرض نسائكم مباحاً

لجنود الأتراك الأنذال.. هيـّا انزعوا كل شارات الرجولة عنكم..». ثم انطلقت زغرودة طويلة النفس، من ميثاء وألاحت برمحها. تبعتها زغرودة أخرى. من خالتها المهاجمة. و(هيهيّات) ونخوات. ثم هجمتا وحدهما. فعادت الحمّية تدّب، من جديد، في نفوس الرجال. وتعالى صوتهم من كل جانب. حقيقةً بعد هذا التقريع. طحن المقاتلون أسنانهم في حلوقهم، وقد غشيتهم سورة الغضب الجنوني. لا يمكن أن يتركوا المرأتين فريدتين وحدهما في المعركة....

ــ «ماذا أنتِ فاعلة بنا، يا بنة ملاعب»؟

قلت – أنا شخصياً أسعد الجندلي – لسعدى ملاعب حين رجعتُ وتعقّبتها مع ميثاء، إلى ساح المعركة. وكنت – حين ذاك ــ قد نجوت من الموت بأعجوبة. بعد أن تعفرتُ بحفرة قذيفة مريعة. فهربتُ كما هرب غيري. من شدة ضغط المعركة. وزخّ الرصاص الذي انهمر باتجاهنا كزخّ وابل من المطر. «رحماك يا الله ؛ما أكثر جنود الأتراك!». ثم سمعت (سعدى ملاعب) تردّ عليّ:

ـــ «أنا فاعلة خير، يا بن الجندلي –أسعد – أهذه شيمتك، وشيمة بني الأعراف، أن ينهزموا في المعركة. ويتركوا نساءهم لفظائع الجنود»؟ / لهجت نفساً وتابعتْ:

ـــ «أين صون الشرف والعرض؟ أين حفظ الدين وسلامة اليقين»؟

ثم سمعت قرع طبول من جديد وزغاريد و(هيهيات). أجل لقد ارتد معظم رجالنا الباقين، بهجوم معاكس، إلى حومة القتال، على أصوات الطبول والذخوات، وعزف (المجوز)، الآتية من كل فج عميق، وعلا الرهيج والضجيج (تحت خفق البيارق):

-ـ «الزغابة يا نشامى! أهل عرمان يا شجعان. أين رجال (المقرن القبلي)؟ أين – أين »؟

وهكذا عادت العزيمة إلى نفوسنا، على أشدّ ما تكون عليه إرادة وثباتاً. وتمكنا من إيقاف زحف العسكر في بادئ الأمر. ثم تكاثر عددنا، بفزعات متتالية، من القرى التي كانت تأخّرت بوصول رجالها إلينا: (امتان). (ملح). (قيصما) وغيرها.

ثم جرت معركة حامية الوطيس مع (العسكر).... وأُراني أسمع، الآن، تلك الصيحات، ولا سيما من (سعدى ملاعب): «النشامى، يا بني الأعراف... يا بواسل... اصمدوا وصونوا عرضكم.... النصر بالثبات والصبر والصمود.. النساء تناديكم والأطفال... و.....

ـ «يا بني الأعراف حافظوا على تاريخكم المجيد في الحرب والقتال...»!

حقيقة كانت قد تعالت معظم هذه النخوات مصحوبة بالزغاريد التي تجعل شعر الرجال يقف في الرأس. والعقل يستطير منه.

أخيراً استطعنا أن نصدّ هجوم الجيش المتقدم أكثر فأكثر. بل أحدقنا به. و(هيهيات) سعدى ملاعب ما زالت تؤجج فينا نار النخوة والغيرة: «يا حماة الدين والكرامة».« يا حماة العرض والأرض والشهامة!».

ــ «لحّد، أنا أخو ثلجة...

ــ ابشر يا عمي محمود...».

ــ «يا لثارات شهداء صلخد الميامين الأبرار»!

ــ «لعينيك يا هزاع.... يا..... يا....».

ثم شاهدت بأم عيني، أبا ميثاء حسين الأطرش نفسه. يناوش ضابطاً من قادة (الحملة)، برتبة يوزباشي. كان هذا الضابط بديناً، كخروف مسمن بالعلف...!

ــ «يا أسعد، يا أخي.. ساعدني على قتله ». / أجبته وكنت بجانبه:

ــ «ابشر أبا ميثاء... هأنذا قد انتهيت من قتل هذا الجندي العبل، الذي أتعبني بعناده وكبر جثته. ثم أرديته

بصارمي المهند يتعفّر بترابه ودمه... لعينيك، حسين، وقد غنمت بارودته البوليكية... ». / قاطعني أبو ميثاء حسين:

-ـ «يا اسعد هذا الغبي لا يريد الاستسلام بوجه ابن الأطرش. سيجبرني على قتله...».

ــ «دعه لي يا حسين...».

ثم كدت أدرك الضابط (الغبي). وأثقب رأسه برصاصة من (بارودتي البوليكية). غير أن أبا ميثاء سبقني إليه وسطره نصفين بصارمه الصمصام. لا. لا. عفواً! بل تمكـّن من أن يرميه، عن قربوس سرج حصانه ويلقيه أرضاً. رفع يديه وهو يرتجف هلعاً: أمان أفندم. أمان.

ساعدته. وكتفناه معاً. وقدناه أسيراً. واستحوزت ساعته، التي بانت في رسغ يده اليسرى. وكنت قد سددت خياشيمي من رائحة جسده الكريهة كرائحة البراز، كأنه منذ شهر لم يستحم أو يغتسل!

....

نعم استمر العراك والصدام في القتال، واستمرّ معه صمودنا ونصرنا، بتجديد جمعنا وبزيادة عددنا، وبتحريض نسائنا، حتى صرنا في أوج حماستنا وحميّتنا. ودارت طواحين الحرب بيننا وبين (العسكر)، ساحقةً ماحقةً.

فانهارت أخيراً قواهم. وتقهقروا ينكصون إلى الخلف.
ثم؛

«عليهم النشامى»، من جديد. وانقضّ المقاتلون، منا، كالأسود الضاربة، في قطعان ماشية. فعاد وتضعضعت صفوف (العسكر). وبخاصّةً أن جملة من الضباط ومعاونيهم، قد أسروا أو قتلوا......

طبعاً. كان في مقدمة مهاجمينا الفارستان الملثـّمتان البطلتان: سعدى ملاعب، وميثاء الأطرش.

لقد فعلت بأيدينا المتينة البلطات القواطع، والسيوف البواتر، المتهاوية على رقاب (العسكر)، كالعنفات الدائرة. والذين سلموا،منهم، اطلقوا العنان لأرجلهم في الهواء. وأخلوا المكان هاربين. بعد أن تركوا الأرض خلفهم ملأى بالجثث والأسلحة التي لا تحصى من البواريد والعتاد، والمؤن. فكانت هذه الأرزاق غنيمة ثمينة لنا. وكنا حقيقةً بأمسّ الحاجة إليها.

* * *

في أثناء المعركة، اضطربت الألسن كثيراً، في حلوق النساء المعروفيات. و هنَّ يتكلمن عن فعل تينك البطلتين، اللتين ظهرتا من بين صفوفهن: (سعدى ملاعب، وميثاء

الأطرش)، في هذه (الحرب) الحاسمة:

ــ «يا غزالة، أرأيتِ سعدى، وهي تغير على العسكر، وقد اعتلت صهوة جوادها، كفارس ذي شاربين من فرسان بني الأعراف المجرّبين»؟

ــ «رأيتها يا هدية. يخزي العين ويردّها عنها..»!

ــ «وكانت مثلها أيضاً ميثاء. فهي لا تقلّ عنها شجاعة..»

ــ «رأيتها وهي تصول وتجول بفرسها المحجّل، مع الفرسان الشجعان».

ــ «إنهما فارستان بارعتان بركوب الخيل، يا صالحة. لم تلد نساء بني الأعراف مثلهما، منذ زمن...».

ــ «كوني مثلهما يا سكينة».

ــ «يا حسرتي، أنا عجوز فقيرة، وحطمة». أجابت سكينة وما زالت تحدّق إلى العالم المحيط من حولها، والمملوء بالغبار. ثم سمعت من صالحة:

ــ «ولكن فزعتك، يا سكينة، بدلاء الماء للمقاتلين، مساهمة مقدرة لك في المعركة. ولاتقل عن فزعة السيف فيها..».

ثم انتبهت صالحة. فصاحت:

ــ «اسمعن يا نسوة كيف صوت سعدى ملاعب يلعلع،

والسيف مشهر بيدها:

ــ «يا أهل صلخد العليا أنتم (الزغابة). احموا ظهري. وأنا لا أنفك من بينكم، حتى تحسم المعركة لمصلحتنا. ونبيد الجيش الطاغي».

كانت وراءها ميثاء رفيقتها في الهجوم، صاحت بها:

ــ «من الخطل أن تنكشفي على العدو، بهذا الشكل، يا خالتي سعدى».

ــ «يا ميثاء كوني بجانبي. وَبَسْ»!

ثم تردّد صدى صيحات، كصيحات الجن. ثم هجوم كاسح من الرجال، خلف الفارستين، هجوم بعزيمة لا ترد. وفوضى من النخوات والصياح:

-ــ « صكّوا الغارة، يا فرسان. والرجّالة تتبع لاحقاً. كونوا كرجلٍ واحد».

ــ «نشامى بني الأعراف. اليوم يومكم ».

ــ «اليوم ولا كل يوم، يا قوم ».

ــ «هيْيَهْ...! هيْيَهْ......!».

وحداء مثل مناغاة (القطا) وقصب (المجوز) – الأرغون – يرّجع الأهازيج، التي تفجّرت بها الدناجر، حماسةً حتى

الموت. والبيارق تخفق في الهواء، و فوق ا لرؤوس. و......

فتماهت النفوس، مع الأجيج، وذراري الرهيج المتعالي في فضاء المعركة، وانعدم حسّ (الحواس). و سعدى وميثاء ما زالتا في المقدّمة. يا للروح! يا للمجد! هجوم عام. والشجعان من المقاتلات والمقاتلين يخترقون صفوف العدو ويقتحمون استحكاماته. بل يلتحمون بجنوده المرعوبين. لقد تمّ الهجوم، على مرأى مني – أنا أسعد الجندلي- بل كنت واحداً من المغيرين. وفي عملية الاقتحام بالالتحام. لم يجدِ بها سوى السلاح الأبيض. لا بواريد ولا طوبات. ولا شرها المستطير.

وهديرٌ كقصف الرعد، ترغي وتزبد به، أفواهنا:

ـــ «يا عسكر، يا طغاة. هذه ساعة حشركم. ولات ساعة مندم...».

ــ «اسطرْ يا (نشمي)، بصارمك ذاك الجندي القادم، واجعله نصفين متساويين». / أجابني(النشمي):

ــ «ابشر به، يا عمي. فخذها طعنة نجلاء، يا جندي الوغد، يا لعين الحظ. أواه..! إنه برتبة (شاويش)، لا جندي. أردوناز... يا حرام، لقد طار رأسه عن هامته».

ثم ابتسم المقاتل واستأنف:«لقد بان شعره المفلفل يا عمي».

ــ «سلمت عينيك، يا نشمي. من أنت »؟

ــ «أنا عبد السلام المحمود، من صلخد العليا».

أجابني. وهرش صدره المشعر. ثم مسح الغبار، بكمّه، عن وجهه. قلت له:

ــ «والنعم منكم، يا أهل صلخد. كفيتم ووفيتم في هذا اليوم، يا (زغابة)!».

ــ «وأنت من تكون، يا شيخ»؟

ــ «أنا اسعد الجندلي، من عرمان».

ــ «كفو. كفو والله..»!

ثم هذب بحصانه إلى جهة أخرى، من مواقع صدّ الجيش ومتابعة اندحاره....

أجل، هرج ومرج كانا يتعاليان، مع مثار نقع المعركة. كأن حلّت (القاصعة) في هذه الساعة. ووقع (عسكر) ممدوح باشا في (حيص بيص) بهذه الهزيمة النكراء، وصاروا مثل قطعان ثيران يجؤرون. ولا يحسنون سوى ذلك الجئير.

لقدّ تصدعت الأرض تحت سنابك خيل المقاتلين المغيرين. وكلّت زنودهم. وتفلّلت شفرات سيوفهم. جرّاء قطع الرقاب، وسطر الجثث. ومن يحسن استعمال (الهنادي)، في العالم مثلما

يستعمله بنو الأعراف، الذين توارثوه كابراً عن كابر.

بلى. اندحر الجيش بكامله. وانسحبت فلوله من (خراب عيون). تاركين على أرض المعركة ما ينوف عن ألفي قتيل.

نادى الشيخ أبو ميثاء حسين الأطرش. وكان على رأس كوكبتنا – كوكبة فرسان عرمان –:

ـ «يكفي، إلى هذا (الحد). من القتل وسفك الدماء. أيها المقاتلون المؤمنون... افتحوا للجنود البقية فرجةً لكي ينجوا بأرواحهم......». / أخذ نفساً وتابع:

ـــ «ولتكن الجهة الغربية صوب (الكارس) نافذةً للهرب».

ـــ «أنا مع هذا الرأي الإنساني، يا جماعة. فسفك الدماء، غير مقبول، بهذه الغزارة. لقد زكمت رائحته أنوفنا. وطغتْ على كل ما كان تعبق به هذه الأرض الطهور من شذا السعتر، وطيب السماق. ونفح الخزام...»

ـ «هذا رأيك، يا شيخ فايز العسقول»؟

ـ «نعم. يا حرام صار (العساكر) مثل النعاج بين أيدي الجّزارين، وسكاكينهم.....».

وسمعت أيضاً صوتاً ثالثاً، صادر عن رجل مجهول لم أعرفه:

ـ «أنا مع هذه العفة. والعفة عند المقدرة – كما يقول المثل –».

ثم إيعازات عسكرية، بالمقابل؛ وريح الحرب ما زالتْ تدوّم عاصفة فوق الأشباح الهاربة كأنما انبروا للدفاع عن أنفسهم بالهزيمة:

ـــــ «عسـكر..عسـكر... انسـحاب نحـو الغـرب. انسحاب..».

و:

ــ «انجُ بروحك، غالب بك».

وصوت أجش مبحوح:

ــ «أين اليوزباشي رضا بك، يا خسرف بك»؟

ــ «لقد قتل، أفندم....»!

ــ «يا لطيف! هؤلاء القوم أنسٌ، أم جن»؟

وكاد يصدّق كل ما قيل عنهم وهو يرى هياكل أجسام الجنود الفاريّن المهزومين، تغشى الصخور، وتتلبّس الجلالي. وتتدحرج متهاوية على الجروف والأودية، مرعوبة، من هول ما لاقوه....«على ممدوح باشا اللعنة. لقد أرسلنا إلى حتفنا وفنائنا في هذه البلاد...». ثم هبّت ريح شرقية انحنت لها هامات الأشجار في الأحراج والأدغال الغربية. كأنما أخذها عطف وإشفاق على هؤلاء الجنود الهاربين المساكين.

أخيراً التقت فلول الهاربين من الجيش في خربة

(الكارس) بحملة إمداد أخرى. دفع، بها إلى المعركة، ممدوح باشا. علّه يعزّز حملته الأولى ويدعم نصرها. وكان على رأسها اليوزباشي محمد الجيرودي.

وأذكر. أو أتذكّر، أنه كان ممتطياً جواداً أصفر. بان وجهه حنطي اللون. تؤطره لحية شقراء عسلية مشذبة. صاح بالجنود، بصوت جهير: «عسكر إلى المعركة، إلى القتال».

ثم دارت رحى المعركة من جديد، بين مقاتلينا وبين قوات (الجيرودي). كانت الصدامات ساخنة. ابتلّت فيها الأفراس بالعرق حتى حجولها. وشدّدنا الخناق على (العسكر) الجديد، بهجوم ساحق. وبعد ساعة واحدة. ولّى الجنود أدبارهم، للنجاة. ولم يعد يُرى على الأرض، إلا الجثث المبعثرة. والأحصنة الهاربة، بلا فوارس. و(اليوزباشي) الجيرودي نفسه. رمح بجواده الأصفر، نحو الغرب و«الحياة خير من الممات. واللعنة على الشيطان»!

ولكن حين عاج فرسه الأصفر، وألهب كفله بسوطه، دون رحمة. تبعه مقاتل ليقتله. ويتغنى بصيت قتله. بيد أن فرس الجيرودي كان أسرع من فرس المقاتل. فتركه يهذب بـ(صفرائه) نحو الغرب. وأكتفى منه بقصيدة أنشدها في الحال. ثم راجت وشاعت فيما بعد على الألسن؛ مطلعها:

«صـفرا جيـرودي غربّـت   قـــوطر يحـــثّ ركابهـــا»

«يــا محمــد خبّــر دولتــك   حنـــا خذينـــا طوابهـــا»

*   *   *

في هذه الأثناء. اغتنمتُ ما سنح لي من الوقت، لأعالج ما حلّ بجوادي، من الجوع والوهن والإعياء. جوادي هذا من خيول الشيخ حسين الأطرش امتطيه حين (الفزعة). عدّة مراتٍ، دار حول محوره. وأنا فوقه. كأنه يقول لي: أنا جدّ جائع. أنا جد منهك القوى لم أعد احتمل. ثماني ساعات من العراك والقتال. تكفي... ثم أخذ ينغض برأسه، نحو الأرض. يريد أن يرتمي. أخذني إشفاق عليه. وأرحته بعض الوقت، والتحقت بالرجّالة، من المقاتلين. ورحت أدوس أرض المعركة. لشدّ ما ذهلت وحزنت. في الوقت نفسه، مما شاهدته فيها من مناظر مقزّزة:

فهذا جندي ملقىً. وقد فَقَدَ قحف رأسه. وعلت وجهه كدم زرقاء. ثم تقطيبة مرّة، ما زالت ماثلة بين عينيه. كأنه يشير، بها، إلى هذا (العالم)، الذي استعصى عليه فهمه. وذاك طوّحت به فرسه. بعد أن اخترمت عظام جذعه نصله

رمح. وثالث فَقَدَ هبرة، من سمانة رجله اليسرى وجدته مازال يئنّ، وينزف. ظهر لي شبه مغمى عليه. كان صدره عارياً. وصدريته العسكرية ملطخة بالدم. تمكنت أن أنهض به قليلاً. ولكن خارت قواه، بعد بضع خطوات متعثره خطاها بجانبي. وفاضت روحه مودّعاً هذه الحياة الدنيا (الفانية)، يجوز أصيب بطعنة داخل قفصه الصدري....

وجندي رابع، كان ملقىً على ظهره. عيناه نصف مغمضتين. كأن يحلم في يقظة. وأمّا الخامس فَبَان لي شعر رأسه الأشقر معفراً بالتراب. ولكن دون وجه. يا حرام! و......

*   *   *

وقبل أن تصبغ حمرة الشفق الخمرية، بنجيعها الآخر، حوافي العالم. تابعت سيري، في أرض المعركة. ما زالت مناظرها المفجعة ماثلة في عيني: صورة ذاك الوجه المضرج بالدم. انفرجت فيه، تحت الأنف الأفطس، تكشيرة بأسنان صفراء. كأن فارق صاحبه هذه الدنيا، وهو يستغيث ليبقى حياً فيها...

ثم لن أنسى ذاك الصوت الذي سمعته من خلف (الخشاع)؛ نظرت. كان صاحبه جندياً جريحاً، يتقلّب بين الصخور، وقد تدلّتْ ذؤابته على جبهته، وغطّتْ عينيه إشفاقاً منها، حتى لا

يرى ما حوله من (البلايا). يصيح: «رفاقي....اخوتي...لا تتركوني هنا، بين أيدي بني الأعراف... انقذوني. انقذوني..». اقتربت منه وقد أخذني عطفٌ شديد عليه. كلنا بنو الانسان، وبنو آدم. ما ذنبه؟ لقد أتى إلى هنا مرغماً. كلمته بالعربية كما نطق: «أتستطيع أن تنهض، يا هذا؟». حرّك جسمه المقلوب على جنبه الأيسر، ثم ما لبث أن لفظ آخر أنفاسه.

وبينما أنا في حزن عليه. إذ شهدت عنصراً معادياً آخر يثب من أعلى سور (الخراب)، كحيوان رمادي كبير. وأخذ يقفز على الأرض. كان بيده بارودة. صحت به: «إيّاك». حقيقة زايلني شعور آخر. خفت أن يطلق النار عليّ. نحن ما زلنا بحاجة ماسّة للمقاتلين، رميته غريزةً بسنان رمحي. أخطأته. ألاح ببارودته في الهواء. علمت أنها فارغة من الرصاص. شهرت سيفي المهند، وتقدمت. ارتمى أرضاً. أجل استسلم لي، وصار يزحف كحية ضخمة، وهو يصيح: ((أمان أفندم....أمان)). جرّدته من البارودة. ومن معطفه. ثم حدّقت إلى طيات رقبته الغليظة.أف! كم هو سمين! وإلى دقنه الحليقة. يجوز أنه صاحب رتبة عسكرية مخفية. تنحنحت وكتمت سعلة. وقبضته من جوزة رقبته الثخينة تلك. واتجهت به نحو الجهة الغربية ((من هنا طريقك)). وأطلقت سراحه، ليلتحق بالهاربين، من أفراد جيشه. ثم

التحقت من جهتي، بالمقاتلين.في حقل مجا به آخر. من أرض ((الخراب)). وأنا أحمل على كتفي بارودة مغنومة. كنت قد فرحت بها فرحاً عظيماً. أجل كان الحصول على بارودة أو أية قطعة سلاح، من العدو،صيداً عظيماً. لأننا نتعامل عادةً مع "العدو" كمقاتلين عزل،حتى نكسب منه سلاحه. وحين حللت في هذا الحقل. شاركت، في مناوشات آخر النهار. وكم سمعت من أصوات النشامى المقاتلين، بخصوص القتال: ((أخي هزاع الحمد.... دونك هذه البارودة واستبدلها ببلطتك.. لقد كسبتها، من جندي. ارتمى أرضاً بعد أن طفر جواده (حبلة الحجارة)...)). / توقف المقاتل قليلاً. ثم تابع كلامه إلى المقاتل هزاع الحمد: «أنت أحقّ بها مني».

ــ «شكراً يا (مهنا)».

وبعد أن تسّلم هزّاع الحمد البارودة: «أواه....! هذه بارودة (أم زر)...!».

ــ «وهذا مخزن فشك، من نوعها».

ــ «والله هذه أخوّة، يا مهنا»!

* * *

الفصل الثالث عشر

إنه بعد الانتظار الحاسم. وإخلاء أرض المعركة من الجنود والتقهقر والانسحاب إلى ما بعد الحدود الإدارية للجبل من قبل (حملة ممدوح). بعد كل ذلك،انشغلنا بجمع الغنائم. من الأسلحة والعتاد والمؤن. وكأن القدر، قد ساق هذه الحرب إلينا،كغزوة رابحة، لننعم بالأرزاق والسلاح والمعدات اللازمة لحياتنا.

لقد كانت غنائم كثيرة.منها خمسة (طوبات) ـ مدافع ـ سليمة صالحة للاستخدام في المعركة، فيما إذا ما توفّر لها من بين مقاتلينا رجل فنـّي (طبّجي) يحسن استعمالها. ويطلق قذائفها من (البومات) المرعبة المدمرة. ثم تمّ إتلافها، في ارض المعركة. حتى لا يستفاد منها من قبل العدو. إذا ما أعاد الكرة، في يوم ما. أمّا قافلة البغال العجفاء المحملة

بـالمؤن والـذخيرة، فقـد سـاقها إلـى قرانـا، نفـرٌ منـا. وسارت وهي ترزح بأثقالها، تحت لسع سياط (الاستعجال). ثم جرى اقتسامها بالتساوي، بين أهالي القرى. وقدمت، كجعالة سريعة. وبعد أن استتب الأمر على ما يرام في قرانـا. ظلـت أحـداث هـذه المعركـة (معركـة الخـراب) ـــ وأهوالها ومناظرها المفجعة. تتتارى في مخيلتي، إلى حين. وقد تناقلتْ أخبار نصرنا فيها الركبان في سائر (البلدان). ولما وصل (علمها) إلى الشيخ الشاعر شبلي الأطرش، وهو في منفاه، بازمير التركية. بعث قصيدة فخرٍ وإعتدادٍ. هذا مطلعها:

«أبـــديت بإســـمك، يـــا عظـــيم الأســـامي

يـــا باســـط الخرســـا بســـهل وســـهامي»

«رافـــــــع ســـــــبع فلاكـــــــها بالتمـــــام

تســـمع دعـــا المظلـــوم، وأهـــل الكرامـــي»

ومنها أيضاً:

«هنـــي قفـــوا، وإحنـــا وراهـــم حدينـــا

مثـــل الجـــرس، تســـمع رنـــين الحســـامي»

«وتشـــــاورا الضـــــباط، وياللمشـــــيرة

دعنـــــا نفـــوز بأرواحنـــا بالسلامـــــي»

وأيضاً:

«وايامـــا خـــذينا مـــن الســـلايل نجيبـــات

بحســـاب كامـــل خمـــس مائـــة لجـــامي»

*   *   *

لم تكن هذه الحرب علينا سهلة المنال. بل كلفتنا كثيراً من الخسائر والرجال. فقد فقدنا. ما يقارب مئتي شهيد. نقلنا جثامينهم باحترام زائد،حتى درجة القدسية، من ساح المعركة إلى صلخد. وجرى لهم تأبين خاص. اقترن بالأهازيج وصدح (المجوز)، والنخوات المنقطعة النظير، في حماستها وحيوتها.كأنه يوم زفاف جماعي.نعم. هكذا يؤبّن الشهداء عندنا!

هذا ولا أنسى، وأنا في حومة احتفال الشهداء الهائج المائج، ذاك المنظر المريع، الذي يقفّ له شعر الرأس إجلالاً.منظر مقاتل من قرية (قيصما)، وهو ينتخي بزَنْده المقطوع،من المرفق. كان قد فصله عن يده بسكين. إثرَ إصابته،به، برصاصة.فعصب مكانه بشاش لفته. ورفعه بيده الأخرى إلى الأعلى. يلِيح به بين بيض العمائم،وصقيل السيوف المتلامعة كخطف البروق. غير أن الذي لفت أنظار الجميع أكثر وأكثر. هو وصول الفارستين الملثمتين: سعدى

ملاعــب، وميثــاء الأطــرش. بعــد انتهــاء المعركــة. ومشاركتهما بنخوات تأبين الشُّهداء، وكل واحدة منهما ترفع سيفها إلى ما فوق رأسها. والدم مازال، عالقاً يابساً، على المقبض.

فطوبى، وكل الطوبى لهما.

وثمة طوبى وثمة أشخاص آخرون

* * *

بعد أن رفل المقاتلون بحلل الفخار، با النصر المجيد. وعلــت رؤوســهم أكاليــل الغــار،في المعركــة الظــافرة. اسـتراحوا. فـي بيـوتهم. وراحـوا يصـفون هـذه (الحـرب). ويـمدحون الـشهداء والأبطـال وا لبطلات. وبخا صة سعدي ملاعب وميثاء الأطرش.

وأذكر مما قيل:

«كرمالــك ســعدى ملاعـــب   منفنــــي كـــل الكتايـــب»

«مــا بيرجــع لقرابــه السـيف   حتـــى نســوي العجايـــب»

«كرمالـــك ميثـــا الأطـــرش   شــــرب الـــدم منـــتعطّش»

«بالبولــــــــــيكي وأم زرر   رشــــينا العســـــاكر رش»

....

ثم أذكر، بالمناسبة، أنه قد وردت إلينا قصيدة، من شاعر عربي، مهاجر إلى البرازيل. يتغنى بها، ببطولة نساء بني الأعراف وشجاعتهن، في ساحات الحرب والقتال، وعلى محياهن نسمات الطهر والاحتشام:

«ونساؤهم، لو تشهدون نساءهم في الحرب حاملة على الشجعان»

«كالماء أعذب ما يكون، وإنه لأشد ما يسطو على النيران»

«ينفخن في أشبالهن ح ماسةً تثب الصدور لها، مع الغليان»

«فكأنهم لبسوا بهن جوانحاً طاروا بها، للحرب كالعقبان»

....

وما إن انتهى قارئ (المكاتيب) في عرمان، سالم السلمان، من إلقاء هذه القصيدة الفصيحة. حتى انبرى له مرهج المملوك، بإلقاء قصيدة أخرى. كانت فدية نثرية. تغنت ببطولة المرأة المعروفية أيضاً:

«سعدي وبستان
يا أختين زغردتا
في الكفر
والسيف في كفّيهما شرر».
«رجع الصهيل

وأعراس الردى
استعرت قصّتنا، على الكون
كيف العرس يستعر».
«تلك الصدور
التي أثداؤها عبق
كيف استحالت لظىً
يهمي وينهمر».
«خضر الدلال
قناة القهر فانتفضت
أطرافه بسلاح القهر
تأتزر»
«جاع الصغار
ولا بأس فأمهم
بين الأشاوس
زاد الحرب تعتمر».

*   *   *

«خسرف يصيح يا ممدوح وين منهرب وين منروح»

ثم عقد ناد آخر، في هذه المضافة، مضافة الشيخ أبي ميثاء حسين الأطرش،التي أنا فيها،الآن، كضيف مجهول الاسم والإقامة.

كان كناية عن نادٍ نسوي ـ إذا جاز هذا التعبير ـ إذ تليت فيه قصائد النصر المبين،التي وصلت إلى (عرمان)، من الشعراء المبعدين أو المنفيين ...

وأذكر منها قصيدة للشاعر الشعبي (عبد الله كمال). يثني بها على البطلة (سعدى ملاعب) وعلى دورها الحاسم في معركة (خراب عيون):

«يوم الخراب شابوا الأطفال المراضيع

سعدى تنخي بلعيال المفازيع»

«مثل النجا، منا ومنهم مضاجيع

مرحوم هللي مسكنو بالرجامي»

ثم تليت، في الاجتماع نفسه، قصيدة أخرى، في وصف معركة (الخراب). وردت من الشاعر الشعبي (طرودي أبوحسون):

«كون جرى وسط عيون أجوهن، من هون و هون».

«والنشامى شالوهم تسمع سوق الحدادين»

«خسرف يصيح يا ممدوح وين منهرب وين منروح»

«القائد والعسكر مذبوح والضباط ملقحين»

....

ثم اختتم هذا النادي الشعري. بقصيدة مطوّلة، وصلتنا من زعيم بني الأعراف المنفي،إلى إقليم (ازمير)، بتركيا. الشيخ الشاعر (شبلي الأطرش) وهذه القصيدة كانت الثالثة من بين القصائد التي أرسلها إلى(الجبل)؛ ومن أبياتها:

«ألفين من حمر الطرابيش سقمان

بعيون ذبحوا من القروم العيالي»

«ضبع الكوريس عازماً لضبع حبران

وصار اللحم، بعيون مثل التلالي»

«جرّد عيالك والثعالب وويوان

وافلح هداك الله عمّا يوالي»

«من فعل ربع ينطحوا الضد بطعان

صلفين يوم الهوش يوم القتالي»

«ببلاد سوريا بلا شك فرسان

من غيرهم إياك تحسب رجالي»

«الله يعــــز بلادنـــــا بجــــــاه ســــــلمان

ويفكّنـــــا مـــــن شــــرار شـــقّا وســـــالي»

....

.....

هكذا كانت قد زخرت هذه المضافة، بنفائس القصائد، التي تمجّد نصر (بني الأعراف)، في هذه الحرب، (حرب ممدوح) وأصبحت نقطة علاّم في تاريخهم. يقولون مثلاً: ولد سنة (ممدوح). مات فلان بعد سنة (ممدوح) بخمس سنين. غزانا بدو السرحان قبل سنة ممدوح بسنتين .... وهكذا دواليك.

وأنا، أبو حمّاد، بعد خمسة وسبعين عاماً، من (سنة ممدوح). دلفت إلى هذه المضافة. ورحت، فيها، أتعشّم ذكريات النصر، وعبق التاريخ المجيد. أُراني أسمع الآن، وأنا ما زلت هائماً، في فضاءات روحي، صوتاً. كأنه مشدوخ من فم أبي ميثاء، حسين الأطرش نفسه: «يا عم، حان وقت الغداء».

التفتُ. رجل طويل القامة دعاني إلى طبق. وضع عليه عدة صحون من الأدم.

-«ولكن أُجدني شبعان، يا معزب الرحمن».

- «أف! منذ البارحة وأنت شبعان»!

-«غدائي عندكم غير...»

-«يعني ...»؟

-«يعنــي. أريـد أن أبقــى عنـدكم. ولـن أغـادر قـريتكم. طوال هذه الفضلة، من عمري»

*   *   *

صدر للمؤلف

الروايات:

١. قرية رمان – دار الإتقان. دمشق، ١٩٦٥.
٢. حفنة تراب على نهر جغجغ- اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٨.
٣. الرجل والزنزانة، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٨.
٤. سلاماً يا ظهر الجبل، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٠.
٥. المهندسون، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٣.
٦. مساحة ما من العقل، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥.
٧. اشتقاقات الفصل الأخير، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٦.
٨. خيمة تخفق تحت الشمس – دار علاء الدين، دمشق، ٢٠٠١.
٩. شعلة لا تنطفئ – دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٤.
١٠. حنين اللون الأزرق - اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.
١١. ما بين السطور .... ما بين الصخور، دار الخير، دمشق، ٢٠٠٨.

المجموعات القصصية:

١. الرقيق -اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٨٥.
٢. الحل – دار إيبلا، دمشق، ١٩٩١.
٣. طائر الكريم – دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٢.
٤. العالم في سهرة -اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٤.
٥. بركة الطيور – دار علاء الدين، دمشق / قصص أطفال /، ١٩٩٧.
٦. نفاد الرمل -اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٩٨.
٧. طيوف -اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠.
٨. الرهان -اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٢.
٩. ثمة موت آخر-اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٦.
١٠. إليك يا ذات النون – دار الينابيع، دمشق، ٢٠٠٧.

الدراسات:

١. موسوعة السويداء، مع مجموعة من مؤلفين / دار علاء الدين، دمشق /، ١٩٩٥.
٢. من دفتر الكلمات. دار السوسن، دمشق، ٢٠٠٧.

الفهرس